لبنى حماد

سماعة أذن تكفي لشعر

رواية

Seen Publishing
للنشر والتوزيع

publishingseen@gmail.com
Facebook.com/seenpublishing
01015699160

اسم الكتـــــاب:	سماعة أذن تكفي للذعر
الكاتـــــــب:	لبنى حماد
الطبعة الأولـــى:	2024
تصميم الغـــلاف:	حسن العربي
المراجعة اللغويـة والإخراج الداخلـي:	Dr.Right Literary Agency
دار النشـــــر:	دار سين.
المدير العـــام:	عمرو النجار.
رقم الإيـــداع:	2025/1787
الترقيم الدولـي:	978-977-984-005-5

جميع الحقوق محفوظة للناشِر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

خطوتُ عدة خطواتٍ سريعة في الممر محاولةً تتبع مصدر الصوت. أريد أن أصل إليه قبل أن يتلاشى، فهو تارةً يتعالى... وتارةً يضعف.

"أنا قلبي دليلي... قالي هتحبي"..

هذا المقطع هو ما يشدو به الصوت الأنثوي بصوت منخفض ضعيف للغاية.

توقف الصوت فجأة، فخلعت السماعة من أذني وعدّلتُ من وضع البطارية بداخلها وعدتُ أرتديها على عجل. انتظرتُ لثوانٍ معدودة حتى تعود للعمل، ها هو الصوت يعود من جديد. لكنه ما لبث أن خَفَضَ مجددًا حتى توقف تمامًا. فكدتُ أن أفقد عقلي وصرت أذرع الممر الجانبي ذهابًا وإيابًا. شعرتُ بالبرودة تغمر جسدي بشدة حتى رجفت، هذا الشعور يبدو مألوفًا.

إنه هنا... تطلعتُ حولي فوجدتُ ذلك الكيان الأسود الذي رأيته في غرفة البيانو يقف هناك ساكنًا في الركن المظلم، لا يظهر منه شيء تقريبًا، فلا تفهم أين تبدأ حدود هالته السوداء وأين تنتهي.

سرعان ما تحرك بسرعة الضوء وعبر من خلال جسدي، كاد قلبي أن يتوقف لحظة مروره بداخلي. وما أن صار خلفي، استدرتُ له فلمس ذراعي لمسة خفيفة كانت كافية ليتجمد جسدي، ومضى إلى الأمام، فشعرتُ أنه يريدني أن أتّبعه، فتبعته راجفة.

مررنا أمام غرفة الضيوف... غرفة البيانو... غرفة أبي وأمي... ثم أخيرًا غرفتي.

اقترب من الدرج في نهاية الممر وأنا أتبعه بخطوات متباطئة. إنه

ذلك الدرج الذي يقود للطابق العلوي المغلق منذ أعوام لا تُعد ولا تُحصى.

ما هذا؟ الصوت يتعالى مجددًا!

تأملتُ الدرج وضغطتُ على السماعة بداخل أذني حتى كدتُ أخترق طبلة أذني، وكلما خطوتُ خطوةً للأمام صار الصوت أكثر وضوحًا.

لا مجال للشك، إنه الصوت الذي بدأتُ سماعه منذ بدء استخدامي سماعة والذي لا أعرف مصدره. صوت امرأة حزينة تغني بصوت متقطع خافت. لا أعلم من أين يأتي؟ أو كيف التقطت سماعة أذني شديدة الحساسية ذبذباته؟!

ومن الواضح أن مصدره هو الطابق العلوي المهجور.

اختفى الكيان الغامض وتركني أمام الباب المغلق. أسمع صوت السيدة التي تغني وأرتجف وأنا أتساءل: ماذا يوجد في الطابق العلوي من القصر؟

ليلى

الإسكندرية – 2015

الساعة الثالثة ظهرًا

انتهى اليوم الدراسي الصاخب، بالكاد سمعتُ جرس انتهاء الحصة الأخيرة. انتظرتُ حتى نهضت سلمى، زميلتي الوحيدة في قسم الموسيقى، حتى أتأكد مما سمعته.

فحشرتُ أشيائي حشرًا في حقيبتي، لا طاقة لي بترتيبها اليوم، وألقيتُ سلامًا فاترًا على سلمى، وانصرفتُ. أتوق للهروب من المدرسة والعودة إلى المنزل في أسرع وقت، فاليوم موعدي مع د. طاهر في تمام الساعة السادسة مساءً، مما يعني أنني لن أحظى بقيلولتي المعتادة. عكّرت الفكرة صفو مزاجي، فقيلولة العصاري مقدسة منذ نعومة أظافري، وبدونها لا أشعر بالتوازن مطلقًا، لكن مكره أخاك لا بطل.

تحاشيتُ النظر للطلبة في طريق خروجي حتى لا يستوقفني أحدهم ويسألني عن مسابقة الموسيقى التي ينتظر الجميع الإفصاح عن موعدها السنوي، واتجهت مسرعةً إلى بوابة المدرسة، حين شعرتُ بقبضة قوية تمسك بمعصمي، فالتفتُّ إلى صاحبها.

إنها تارا، طالبة جميلة وقوية البنيان، يبدو أنها حاولت لفت انتباهي أكثر من مرة، لكنني لم أسمعها فاستوقفتني.

تسألني عن شيءٍ ما بمرحها المعتاد، لكنني لم أسمع ما تقوله بالطبع. أشرتُ إلى أذني بحرج، فابتسمت وأعادت سؤالها بصوت

أكثر ارتفاعًا:

- هنبدأ إمتى تدريبات المسرحية، مدام ليلى؟

كدت أجيبها، لكن الفتاة تراجعت خطوة للخلف بتردد، وهي تطلع خلفي بنظرة مزيج من الخوف والخجل. كنت أعلم ما هو الشيء الوحيد الذي يستطيع أن ينتزع المرح من تارا العفوية ذات الأربعة عشر عامًا. إنها الأخت كلوديا بالطبع، مديرة مدرسة نوتردام دي سيون الصارمة التي يرتجف الجميع لدى سماع اسمها. تقدمت السير كلوديا خطوة للأمام حتى صارت تقف بيني وبين تارا، ونظرت إلى الفتاة بنظرة لائمة:

Parle en français avec ton enseignante, Tara!

Pardon, sœur Claudia!

وانسحبت الفتاة بعدما أذنت لها الأخت بالانصراف، وقد نسيت كل شيء عن سؤالها بالطبع، وكان هذا لحسن حظي. بينما التفتت الأخت كلوديا إليّ مبتسمةً ابتسامتها الوقورة، وقالت لي بصوت حاولت أن تجعله مرتفعًا:

- شكلك مستعجلة النهاردا يا ليلى؟

بادلتها الابتسام قائلة:

- ميعاد دكتور الأنف والأذن النهاردا.

غمر الهم ملامح وجهها فامتلأت بتجاعيد القلق:

- هتعرضي عليه نتيجة مقياس السمع الجديد؟

فهززت رأسي، وبذلت جهدًا جهيدًا لأرسم بسمة على شفتي حتى أنفض غبار القلق، لكنني فشلت. ربّتت على كتفي مشفقةً، وقالت بحنان لطالما لمسته يختبئ خلف شخصها الصارم:

- هصلي لك يا حبيبتي.

ثم رحلت وتركتني أمضي في طريقي.

وقفت على باب المدرسة أتأمل سيارات الأجرة التي تمر من أمامي بسرعة صاروخية، محاولة اختيار سائق عجوز لا يبدو كقاتل مأجور. هذا هو... أشرت إليه، فتوقف وصعدت إلى سيارته العتيقة التي تتحرك بسرعة سلحفاة مصابة بشلل الأطفال.

لا بأس، على الأقل يبدو لي رجلًا طيبًا تقليديًا لا يكف عن الشكوى من ارتفاع الأسعار، أو هكذا أظنه يتحدث، فالواقع أنني لا أسمع أكثر كلامه بوضوح.

يقع منزلي بكفر عبده، أي ما يقرب من محطتين سيرًا على الأقدام. لطالما أحببت أن أعود لمنزلي سيرًا، لكنني عدلت عن هذا القرار في الأعوام الأخيرة الماضية، فلا أعتقد أن المشي وحيدة في الشارع يناسب فتاة على أعتاب الصمم.

أخرجت المرآة الصغيرة من حقيبتي المنتفخة بالأغراض وفتحتها ليطالعني وجهي المرهق ذو الهالات السوداء، ثم حركت المرآة لليمين قليلًا وتطلعت لمبنى المدرسة العريق الذي يصغر انعكاسه كلما ابتعدت السيارة.

مدرستي العزيزة... تلك التي نشأت بها وترعرعت وسط قيم

الراهبات الصارمة وأحضانهم الدافئة بالرغم من كل شيء، ولما أتركها يومًا طوال حياتي، حتى في فترة دراستي بمعهد الموسيقى كنت أتطوع لمساعدة الراهبات في تعليم الفتيات الصغيرات العزف على البيانو. وحين انتهت أعوام المعهد، عدت إليها بسعادة غامرة، لكن هذه المرة كمعلمة موسيقى وليست إحدى الطالبات اللاتي يخافن من المعلمات شديدات المراس.

لم أستطع يومًا أن أكون معلمة صارمة مثل هؤلاء المعلمات (ولهن كل احترامي بالطبع). لم أحب فكرة تغيير شخصيتي لأبدو شخصية أكثر صرامة حتى تهابني الطالبات وأحظى باحترامهن.

لكنني حاولت جاهدة أن أكون صديقتهن، وأكاد أجزم أنني نجحت إلى حد ما، ربما ليس طوال الوقت بالطبع، فنفسية المراهقات أعقد من اللابيرينث (متاهة الأساطير الإغريقية).

أطلقت زفرة حارة وأسندت رأسي على زجاج النافذة وأنا أفكر في موعد الطبيب الذي أخشاه كثيرًا. فاليوم سوف يتحدد مصير أذني. كنت قد لاحظت أنني لا أسمع جيدًا عندما يتحدث إليّ أحدهم منذ ما يقرب من العامين مثلًا، لكنني كنت أتظاهر دائمًا أنني بخير وأن هذه ليست سوى أوهام. حتى ألحّ عليّ أصدقائي بضرورة استشارة الطبيب، فبدأت أشعر بخطورة الأمر. ويبدو أن هذه الاستشارة كانت قد تأخرت كثيرًا للأسف، فقد كان الخبر مفجعًا، هَوَى على رأسي كالصاعقة محدثًا خللًا في حياتي الهادئة الرتيبة. لقد فقدت سمعي في أذني اليمنى تمامًا، أما اليسرى فتحتاج لسماعة ضعف سمع حتى لا تصاب بالصمم التام هي الأخرى.

استشرت أكثر من طبيب على مدار العامين الماضيين. ولا أخفيكم سرًا أنني أعلم ما سوف يقوله هذا الطبيب أيضًا، فهذا هو الطبيب الرابع الذي أخذ رأيه، وقد اجتمع الثلاثة السابقون على نفس الرأي. لكنني كنت مصرةً أن أسمع رأي أكثر من طبيب، لعل أحدهم يقول رأيًا مختلفًا.

- هو دا البيت يا آنسة؟

قاطع السائق العجوز حبل أفكاري وقد توقفت السيارة أمام منزلي. تطلعت للقصر المهيب الذي يقف شامخًا، وهززت رأسي بالإيجاب. ترجلت من السيارة وأعطيت السائق السبعين جنيهًا التي اعتصرتها في قبضتي طوال المشوار حتى تلوثت بالعرق، فتأملها ساخطًا وأخذ يصب اللعنات على الفتيات العريات من أمثالي اللاتي يسكنّ القصور ويفطرن بالسلمون المدخن صباحًا ثم يأبَين دفع بضع جنيهات إضافية للسائقين الفقراء.

طبعًا أنا لم أسمع ما قاله، لحسن حظي، لكنني لمحت ملامحه الغاضبة وحديثه الصاخب، فخمنت ما قاله في عقلي. دخلت إلى الحديقة شديدة الخضرة، وما أن عبرت من بوابة القصر حتى شممت رائحة عطر الشانيل يفوح في الأرجاء. إن جدتي ناريمان في الجوار إذًا. بالفعل وجدتها هناك في ركنها المفضل من الحديقة، تفحص نباتاتها لتتأكد من جودة المحصول، وتدون بعض الملاحظات في دفترها بجوار فنجان التيليو الذي تتصاعد منه الأبخرة العطرة. أجفلت حين رأتني أقف خلفها فجأة، ثم سرعان ما استعادت رباطة جأشها وقالت لي شيئًا ما بطريقة عملية وهي تشير إلى خرطوم

المياه.

لم أسمعها بالطبع، فجدتي لم تتأقلم بعد على فكرة أنني نصف صماء، لكنني أدركت أنها تطلب مني توصيل الخرطوم بالصنبور لتقوم بري الزرع. سألتها وأنا أقوم بالمهمة الشاقة بصعوبة لأن الخرطوم ثقيل للغاية:

- إمال فين عم عبدو؟

فغمغمت من بين أسنانها باشمئزاز:

- سافر بلده إمبارح، مراته بتخلف للمرة العشرين تقريبًا... ما هو أصل العالم ناقص تاني من عينة عبدو وأمثاله.

وعم عبدو هو بواب القصر المجاور الذي يأتي كل ثلاثة أيام ليجلب طلبات البيت التي تمليها عليه دادة رضا ويعرض على جدتي المساعدة في الاهتمام بالحديقة، لكنها تأبى أن يلمس أحدهم نباتاتها الغالية بكبرياء، كما أنها لا تستسيغ هذا العبدو فهو – "هذا الحشرة يحسب نفسه مالك كفر عبدو لمجرد أنه سمى على اسمه بمحض الصدفة" – على حد قولها.

تأملتها وهي تسقي النباتات بعناية بالغة، شعر أبيض ناعم معقوص برقي، عيون زرقاء تختبئ وراء منظار طبي أنيق، وجسد رشيق يتحدى جميع عوامل الزمن بسخرية.

خمسة وسبعون عامًا من الشموخ والتعالي، إنها جدتي الأرستقراطية سليلة الأتراك المتعالية، تكره عبد الناصر وتسب ثورته، وترى أن الفلاحين جميعهم يجب أن يُجلدوا بالسياط.

وبالرغم من طبقيتها وقسوتها المبالغ فيها، أحبها كثيرًا، فأنا لا أعرف لي أسرة غيرها.

توفيت أمي وهي تضعني، فتولت الجدة ناريمان رعايتي وتربيتي، واختارت لي أرقى مدارس الإسكندرية وأصرت على اصطحابي لدروس البيانو منذ بلوغي عامي الثالث. وحين بلغت السابعة حاولت أن تعلمني كيف أصنع مستحضرات التجميل من النباتات والزيوت الطبيعية حتى أورث هذه المهنة من بعدها، فجدتي تنحدر من عائلة لها تاريخ طويل في مجال صناعة العقاقير.

لكنني لم أهتم كثيرًا وقتها، ربما لأنني كنت أهتم بشيء آخر، فقد وقعت في حب الموسيقى وسحرتني نغمات البيانو الآخاذة. اعتدت أن أتمارض حتى أتهرب من دروسها اليومية عن تركيبات مستحضرات التجميل الخاصة بها لأتدرب على عزف المقطوعة الموسيقية الجديدة التي تعلمتها في درس الموسيقى. وحين ظهرت نتيجة الثانوية العامة وعلمت أنني أنوي الالتحاق بمعهد الموسيقى رغم أن مجموعي يؤهلني لكلية الصيدلة بكل أريحية، كادت أن تجن. وهددت بمقاطعتي، لكنني تمسكت برأيي.

كنت أعلم جيدًا أن كل هذا ليس سوى هراء هيستيري، وأنها لا تستطيع مقاطعتي، فإذا قاطعتني جدتي، من يبقى لها؟

وبالفعل استجابت لرغبتي على مضض أمام إصراري، لكننا لم نعد على وفاق منذ ذلك اليوم. وكأن حزنها لعنة تطاردني حتى يومنا هذا... فبعد مرور أربعة عشر عامًا، ها أنا على أعتاب الصمم، أجلس أمام البيانو... أداعب مفاتيحه بأناملي، لكنني -وحسرتاه- لا أسمع ما

تعزفه أصابعي.

ناريمان

القاهرة – 1958

مرت ستة أعوام على الانقلاب العسكري الذي أطاح بكل شيء. اختلفت أحوال البلاد، فصارت من سيئ إلى أسوأ، لكن الشعب لا يبالي... ها هو عبد الناصر يصدر قانون الإصلاح الزراعي ويسلب الحقوق من أصحابها... فينشدون الأغاني في الطرقات قائلين: ناصر يا حرية... يؤمم قناة السويس ليجلب العدوان الثلاثي على رؤوسهم جميعًا... فيكتبون الأشعار حول بطولاته الوهمية وإنجازاته غير المرئية. منتهى العبث!

أتممت عامي الثامن عشر وسط عشرات الكتب والمراجع الضخمة وأنا أستعد لخوض امتحاني الأخير في كلية الصيدلة جامعة باريس. وعندما انتهت امتحاناتي، انتهزت الفرصة وطلبت إجازة من الأجزخانة التي أعمل بها كمتدربة وعدت في إجازة سريعة من فرنسا لرؤية أبي بناءً على رغبة أمي في خطابها الأخير.

مراد باشا المرغني... أبي الذي لم يعد كما كان، إنها الجلطة اللعينة التي أسقطته أرضًا. المسكين لم يحتمل رؤية أملاكه وأراضيه الزراعية تُصادَر لتنتقل بعضها لضباط الانقلاب بصورة غير رسمية، والبعض الآخر للخدم والفلاحين بدعوى الاشتراكية الغاشمة التي أطلقها عبد الناصر والتي لم تكن تخدم سوى حاشيته والفلاحين. صار أبي حبيس مقعدٍ متحرك يدفعه عثمان الخادم النوبي الذي رفض أن يفارق أبي رغم أننا توقفنا عن دفع راتبه منذ ما يقرب من ثلاث سنوات.

لا أصدق أن الأمر قد انتهى به هكذا... عاجزًا لا حول له ولا قوة بعدما كان رائد صناعة الأدوية بمصر آنذاك، ولطالما اهتزت له شوارب الأطباء وأصحاب دكاكين العقاقير جميعًا. لكن لا شيء يدوم.

دخلت قصرنا الحبيب أستعيد ذكريات طفولتي مع كل خطوة. لقد تغير المكان كثيرًا؛ حل الأثاث الرخيص محلي الصنع محل أثاثه المستورد والأنتيكات باهظة الثمن، حتى صار من الصعب التعرف على المكان. بحثت عن الجميع لكنني لم أجد أحدًا. هناك ضوضاء تتسرب من مكتب أبي، فاتجهت إلى مكتبه بلهفة، فوجدته يجلس هناك يطالع جهاز التلفاز الضخم، بينما جلس عثمان أرضًا عند قدميه ساكنًا رهن إشارته.

عجبًا! من أين لهم بثمن التلفاز؟ إنه العام الأول للتلفاز في مصر وسمعت أنه لا يمتلكه سوى عدد محدود من الأسر شديدة الثراء، فثمنه يكلف ثروة صغيرة، ونحن لم نعد ننتمي لطبقة الأثرياء بعد الآن.

لا تتعجبوا، فقد ساءت أحوال أبي المادية للغاية بعد مصادرة ثروتنا والأراضي التي كانت تدر علينا أموالًا كثيرة، كما توقفت تجارته للأدوية بعد غلق المصنع.

في البداية، حاولت أمي أن تتماسك حتى لا نسقط درجة من سلم الطبقات الاجتماعية التي ننتمي لقمتها منذ نعومة أظافرنا، مما اضطرها إلى بيع مجوهراتها على دفعات لتدفع رواتب الخدم المتأخرة لعدة أشهر. لكن سرعان ما سقطنا عشرات الدرجات عندما نفدت أموال أمي، فاضطرت إلى بيع أثاث قصرنا ثم إقالة الخدم ما

عدا عثمان وابنته رضا الصغيرة ذات العشرة أعوام.

كانت فترة من أصعب ما يكون على أسرتي الصغيرة. عانى أبي كثيرًا واستسلم لمرضه، بينما انشغلت أمي بمحاولات شبه ناجحة لعقد علاقات مع زوجات أصحاب النفوذ الجدد... ضباط الانقلاب. فقد كانت ترى أن المستقبل القادم لهم ويجب علينا مواكبة الأحداث والانخراط بينهم حتى لا نُدهس بالأقدام.

أما أنا، فقد هربت من هذه المعاناة إلى باريس.

لقد مر عام منذ سفري للدراسة بجامعة باريس. بالرغم من اعتراض أمي وسوء أحوالنا المادية، أصر أبي على استئناف دراستي في الخارج عندما استشعر شغفي للمعرفة ورأى مدى اهتمامي بصنعة الأجداد وفضولي المتزايد بعلم العقاقير منذ صغري. وعندما سألته أمي عن مصاريف الدراسة بالخارج وكيفية تدبيرها، أرسل عثمان ليجلب بائع السيارات حتى يشتري أوتوموبيل الأسرة وأرسلني إلى باريس محملة بمصاريف تكفي دراستي ومعيشتي لمدة عام كامل.

شعرت يومها بالامتنان لثقة أبي وتضحيته من أجلي، وكان هذا هو الحافز الذي دفعني دفعًا للتفوق في دراستي للصيدلة رغم صعوبة الظروف وقسوة الغربة التي لم أعتدها من قبل. لكنني أقسمت أن أعيد أمجاد عائلة المرغني في صناعة العقاقير.

نفضت عني غبار الذكريات المؤلمة واقتربت من أبي... احتضنته، فأدار رأسه إليّ، وعندما رآني ابتسم بأسى. نهض عثمان فرحًا وهو يقول بلهجته النوبية:

- حمد الله على سلامتك يا ستو هانم.

فهززت رأسي لعثمان وقبّلت يد أبي الصامت وأنا أتأمل ملامحه القسيمة التي زحف إليها العجز، لا يبدو فرحًا برؤيتي!

- واحشتني يا باباه، رجعت مخصوص عشانك أنت.

هز رأسه وهمهم بكلام غير مفهوم، فضُدمت!

يا إلهي! إنه لا يستطيع النطق، متى ساءت حالته إلى هذا الحد؟!

تطلعت إلى عثمان متسائلة، فقال مفسرًا بحزن:

- من وقت ما سافرتي وهو زعلان على فراقك يا ستو هانم، ومشوفناش ولا يوم واحد حلو والله، وفي يوم صحينا لقيناه كده، الدكتور قال من كتر الهموم.

قاطعتنا صوت خطوات أنثوية أنيقة:

- حمد الله على السلامة، ناريمان حبيبة ماماه، واحشتينا.

التفتُّ لأمي الجميلة التي احتضنتني بحرارة مزيفة.

تأملت ثوبها الأسود الأنيق والمجوهرات الثمينة التي تزين جيدها، ما زالت محتفظة بأناقتها المعهودة.

تعجبت من هذا الثراء البادي على أهل القصر، فقد رحلت عنهم وهم لا يجدون ما يطعمونه للخدم. لكن أمي لم تترك لي فرصة للتساؤل، وجذبتني من يدي وهي لا تكف عن الحديث بمرح عن القصر والتعديلات التي قامت بها مؤخرًا، مشيرة إلى الأثاث الجديد.

- بصي! ده خشب طبيعي، اشتريته الأسبوع اللي فات من بونتريمولي، أحدث موضة.

تطلعت لي وقالت ساخطة:

- مالك ضعفانة أوي كده ليه؟ انتِ مكنتيش بتاكلي في باغيه؟ تحبي تاكلي إيه على الغدا؟ استني متقوليش، أكيد وحشتك الشركسية بتاعة ماماه.

والتقطت جرسًا من المائدة المجاورة وحركته بعصبية، لتأتي رضا ابنة عم عثمان مسرعة وهي ترتدي ثوب الطاهية الأبيض الأنيق، والذي كان يبدو جميلًا مع بشرتها السمراء. ابتسمت رضا لدى رؤيتي وقبّلت يدي فرحة، فقد كنت أحبها كثيرًا ولطالما أعطيتها ملابسي القديمة لتقوم بتضييقها لتناسب جسدها الهزيل.

- رضا اشتغلت في المطبخ مكان سعدية، شاطرة وبتسمع الكلام.

- كتر خيرك يا ست هانم.

- عايزين شركسية وكشك ألماظة.

- من عينيّ، ألف حمد الله على سلامتك يا ست ناريمان.

قلت لأمي:

- طب باباه كده هيأكل إيه؟ هو لا بيحب ده ولا ده... ما انتِ عارفة يا ماماه!

قالت بعصبية غير مبررة:

- ياكل اللي موجود، ناريمان، مش هنطبخ مليون صنف.

ثم أطلقت زفرة حارة وعادت لترتدي ابتسامتها المشرقة قائلة بلهجة ذات معنى:

- وبعد الغدا عايزاكِ ترتاحي شوية عشان بالليل في بارتي وعايزاكِ تستعدي عشان هتقابلي ضيف مهم أوي.

- بارتي إيه يا ماماه! أنا لسه جاية وتعبانة من السفر.

- بلاش دلع يا ناريمان، ده مستنيكِ بقاله كتير أوي.

- مين هو ده؟

اتسعت ابتسامتها وقالت بلهجة شيطان يحلم:

- صلاح... المقدم صلاح فخري.

رضا

القاهرة -1958

عادت السيدة ناريمان من بلاد الخواجات بعد مرور عام كامل من الحزن على غيابها، الحزن الذي لم يظل الجميع بالطبع. فقط أباها مراد باشا، وأنا وأبي من قتلنا الحزن على سفرها المفاجئ. أما السيدة نازلي فلم يكن لديها من الوقت ما يكفي لتحزن على سفر ابنتها. لقد كانت مشغولة بنزهاتها اليومية الغامضة مع ذلك البك الذي يرتدي حلة أنيقة وينتظرها دومًا في الأتومبيل الفخم أمام القصر، تاركة مراد باشا وحيدًا في فراشه يعاني من آلام مرضه وغربة ابنته الوحيدة. ثم تعود في منتصف الليل ثملة مبعثرة الثياب، وتستيقظ صباحًا بكدمات متفرقة على رقبتها وذراعها المرمري.

قلت لأبي ذات ليلة أنني لا أحب ما أراه من أفعال الهانم، فإنهال عليّ أبي صفعًا وركلًا ليلقنني درسًا لن أنساه ما حييت، إن حياة الباشوات والهوانم هي خط أحمر لا يجب علينا نحن الخدم أن نتحدث عنها أو نجرؤ على انتقادها. نحن هنا لا نرى، لا نسمع، ولا نتكلم! كتمت خواطري السوداء بداخلي، وشعرت بالشفقة على الباشا السابح في ملكوته الخاص، لا يعلم شيئًا عما يدور حوله.

ثم كانت تلك الليلة...

استيقظت من نومي في المطبخ على صوت طلقات رصاص يصم صداها الأذن، شعرت بخوف شديد لكن فضولي غلب ذعري. نظرت من نافذة المطبخ المطلة على البوابة الخارجية للقصر، أحدهم يفر

هاربًا من القصر ولا يلتفت خلفه. لمحت الأتومبيل الأسود المألوف ينطلق مسرعًا بينما تعالت الأصوات في صالة القصر. فتسللت إلى الصالة على أطراف أصابعي، ورأيت الباشا والهام يتعاركان وقد سقط الباشا أرضًا من على مقعده المتحرك، يستند على بندقيته، ورائحة البارود التي تتصاعد منها تزكم الأنوف... أخذ يصيح بصوت لم أعتده من قبل من الباشا الهادئ الوقور:

- هي حصلت تجيبي عشيقك لحد البيت! دي مش أفعال ولاد ذوات، انتِ غلبتِ بنات الشوارع والمومسات!

بينما وقفت هي فوق رأسه ولم تهتم حتى بمحاولة مساعدته على النهوض وهي تصيح:

- كفاية بقى، أنا استحملت بهدلة محدش يستحملها.. مجوهراتي بالشكماجية بعتها كلها عشان أخلي البيت ده يفضل مفتوح، من غيري كنت هتترمي في الشارع، وأنت مفيش إحساس... مش عايز تخف ولا عايز تموت!

تعالى صوتهم للغاية وفجأة شعرت بأحدهم يجذبني من ذراعي إلى المطبخ، إنه أبي. كدت أن أعترض وأخبره عن الرجل الذي فر هاربًا، لكنه أشار بأصبعه أن أصمت وعيناه تشتعلان بالنيران. لم أستطع النوم ليلتها، خرجت من المطبخ لأقوم بتنظيف آثار المشاجرة التي حدثت منذ ما يقرب من ساعة. البندقية ما زالت هناك أرضًا وآثار أقدام المتسلل. جلست على ركبتي أمسح الأرض حين وجدت قطرات دماء وكتلة دامية على بعد خطوات من الدماء.

يا إلهي، إنها جزء من إذن آدمية! لقد فقد الرجل الجزء السفلي من

أذنه!

التقطتها بقطعة من القماش راجفة وألقيتها في القمامة. وفي الصباح طلبت نازلي هانم الحكيم للباشا، وعلمنا أن الباشا اشتد عليه المرض وأنه لن يتحدث مجددًا.

صلاح

القاهرة – 1958

هناك من يهوى جمع الطوابع، وهناك من يهتم بالأنتيكات النادرة، أما هوايتي أنا فكانت مختلفة قليلًا. كنا نحيى في عصر ما بعد الثورة العظيمة في حالة من الانتشاء، نكاد لا نصدق الإنجازات التي صنعناها بأيدينا والتي لم نكن نحلم بتحقيق ربعها. ثم بدأ الزعيم يتخذ قرارات أخرى لا تقل أهمية عن الثورة، بل كانت امتدادًا مجيدًا لها. فأصدر قانون الإصلاح الزراعي ليسترد كل الأراضي التي سرقها لصوص الطبقة الأرستقراطية من الفلاحين المغلوبين على أمرهم، والذين ينتمي لهم أبي بالمناسبة، ثم بدأ في مصادرة أملاكهم أيضًا بواسطة ما أطلق عليها لجان المصادرة التي كانت تضم نخبة من عناصر الجيش الذين كان يثق بهم والتي تشرفت أن أنتمي إليها.

تسألونني وما هوايتي التي كنت أخبركم عنها؟

لقد كنت أهوى قهر هؤلاء الإقطاعيين وأنا أنتزع منهم ما يظنون أنه حق مكتسب لهم. أتلذذ برؤية بكاء نسائهم بينما يطرق رجالهم الرؤوس في ذل حتى لا تلتقي أعيننا فيشعرون بنشوتنا.

لطالما كرهت هؤلاء الأنذال الذين يحسبون أنفسهم جنسًا ساميًا أرقى من باقي الشعب، لكن آن الأوان للقضاء على استبدادهم وإنهاء عصرهم. إنه عصر جديد، عصر رجال الثورة.

تسألونني عن علاقتي بنازلي هانم؟ لم تكن علاقتي بنازلي هانم مخططًا لها إطلاقًا، بل إنني حاولت التهرب من شباكها بشتى الطرق.

لا أنكر أنها سيدة غاية في الجمال، يسيل لها لعوب كل من يراها، رشيقة وأنيقة، أراهنك أن من المستحيل أن تخمن عمرها الحقيقي، والأهم من كل هذا، أنها كانت دائمًا متاحة كلما أردت رؤيتها. في البداية استنكرت الفكرة وذلك لغرض ما في نفسي سأخبركم به لاحقًا.

لكنها ظلت تلاحقني في كل مكان أذهب إليه، وتعدني أن تذوقني كل ما لذ وطاب إذا ما وافقت أن أكون معها، فاستسلمت لها بتردد تحت تأثير جمالها الآخذ. ولم تكذب نازلي...

تغيرت طبيعتي منذ ارتباطي بها، فوجدتني معها سعيدًا منتشيًا مستمتعًا طوال الوقت. أن فكرة مطارحة هذه الحسناء الفراش وهي تنتمي لطبقة أرستقراطيين المجتمع السابق كانت كفيلة برفع شهيتي الجنسية لعنان السماء.

كانت رهن إشاراتي وتفعل كل ما أطلبه منها في الفراش حتى إذا أردت ضربها وسبها بأقذع الألفاظ فلا تعترض مطلقًا. كنت أشعر أنني بمضاجعتها وإذلالها كانما كسرت أنوف رجال طبقتها جميعًا.

أتعتقدون أنني خنزير؟ أليس كذلك؟

حسنًا، لا أبالي برأي الجميع.

ثم من منا لا يملك ذلك الجانب القذر الذي يخفيه؟

كان هناك أمر واحد فقط قد يعكر صفو علاقتنا، وهو الغرض الذي كان في نفسي والذي كان يمنعني عنها في بداية الأمر. ابنتها ناريمان ذات الثامنة عشر ربيعًا، ناريمان التي رأيتها مرة واحدة فقط ومع

ذلك استحوذت على كل كياني ولم تفارق خيالي. كنت أنا الضابط المكلف بمهمة تسجيل أملاك أسرة المرغني استعدادًا لمصادرتها، وهي مهمة كانت من أكثر المهام المحببة إلى قلبي إذذاك، وقد كان قصر المرغني هو القصر العاشر الذي أقوم بمصادرة أملاكه في منطقة الزمالك. قدري أن أقابل هذه الحسناء وسط أسرة المرغني لتقلب حياتي رأسًا على عقب، ناريمان التي وقفت يومها بكبرياء تربط على كتف أمها الباكية وتمنعها من البكاء بحزم تحسد عليه.

أعجبت بقوتها وشموخها وتعجبت كيف تستطيع أن تصمد أمام هذا الموقف المذل الذي وجدته يبكي أشد الرجال بؤسًا وتنهار على إثره النساء الأخريات. وتساءلت يومها: ما الذي قد يكسر أنف هذه الفتاة إذًا؟

لكنني لم أستطع أن أتحدث معها يومها. ثم شاءت الأقدار أن أجتمع بنازلي هانم والدتها في حفلة صاخبة بمنزل إحدى سيدات المجتمع الراقي، وقدمتها لي صاحبة الحفل، لكنني كنت أذكرها بالفعل حتى وإن تظاهرت بالعكس... كيف لي أن أنساها؟ إنها أم الفتاة التي سلبتني عقلي.

سألتها عن ابنتها ناريمان دون خجل في مقابلتنا الأولى وما إذا كانت مخطوبة، فأخبرتني أنها تدرس في باريس وأنها سوف تعود في نهاية العام. وتعددت مكالماتنا الهاتفية فيما بعد بحجة السؤال عن ناريمان ومعاد عودتها. ثم بدأت لقاءاتنا، لا أعلم كيف تطورت علاقتنا من رجل وحماته المستقبلية إلى رجل وعشيقته المتزوجة.

كانت نازلي في منتهى الاستخفاف، لا تبالي بسمعتها، وتغامر لتقبل

لقاءنا في أماكن عامة أمام الجميع دون خجل. وأنا كنت لا أبالي في الواقع، أعد الأيام والليالي المتبقية على عودة ناريمان من فرنسا حتى أتزوجها، بينما أقضي وقتي في مغامراتي العاطفية مع أمها. ولقد كانت نازلي تستنزفني ماديًا مقابل مضاجعتي لها كأي ساقطة من شارع عماد الدين، فاشترت أثاثًا جديدًا لقصرهم، وابتاعت جهاز تلفاز حديثًا حتى يكون لأسرتها السبق بين الأسر من حسابي الخاص.

كما عادت تتردد على جواهرجي السرجاني بعدما كانت لا تزوره إلا لتبيع جزءًا من صيغتها. ثم حدث أنها دعتني لزيارتها بقصرها يومًا ما... فقلت لها متهكمًا:

- طب وجوزك؟ مراد باشا؟

ردت في غنج:

- مراد مبيخرجش من أوضته.

اعتدلت في جلستي وأنا أفكر في عرضها.

يا لها من فكرة!

أن أضاجعها في فراش زوجها الباشا الذي فضلتني عنه كعشيق. كانت مغامرة مجنونة بالتأكيد لكنها مثيرة في الواقع. ولأنني أحب المخاطرات قررت أن أخوضها.

حددت لي اليوم، فذهبت في ساعة متأخرة كما طلبت مني، لنتأكد من نوم الخادمة والبواب العجوز، ودلفت إلى المنزل من الباب الخلفي الذي تركته لي مفتوحًا. تحسست طريقي للدرج الداخلي كما

وصفته لي نازلي. اصطدمت بقطع الأثاث المتناثرة وكدت أن أسقط تمثالًا، لكن أظنني كنت قد اقتربت من الدرج الذي يقود لغرفتها. أمامنا ساعتان فقط قبل حلول الفجر واستيقاظ الخدم.

وفجأة وجدت نفسي أقف أمام مراد باشا على مقعده المتحرك الذي كان خارجًا من مكتبه. لحظات من الذهول انتابتنا، غمرنا العرق البارد ثم أفاق هو من شروده قبلي وعاد بكرسيه إلى داخل المكتب. للحظة كانت كفيلة أن أبحث عن طريق العودة مسرعًا.

فجأةً انطلق صوت الرصاص مدويًا من خلفي!! وشعرت بألم حارق في شحمة أذني اليمنى. فررت هاربًا من نفس الباب الذي دخلت منه وأنا أسمع صوت نازلي في الخلفية تصرخ، لكنني لم أسمع المزيد لأنني قفزت من النافذة الأقرب لي وأطلقت ساقي للريح ما أن لمست قدمي عشب الحديقة لأستقر في سيارتي بعد أقل من دقيقة.

التقطت أنفاسي بصعوبة، وركبتي اليسرى لا تكف عن الارتجاف. تحسست أذني التي تنزف بغزارة بعدما فقدت شحمة أذني.

رباه! لقد كان هذا وشيكًا للغاية!

كاد الرجل أن يقتلني!

وحينها فقط قررت أن أقطع صلتي بنازلي، وتوقفت عن الرد على اتصالاتها تمامًا حتى بعد أن علمت بإصابة زوجها بجلطة جديدة أفقدته النطق يومها.

انشغلت بعملي وترقيتي الجديدة ثم انتقلت إلى الإسكندرية لأستقر هناك بعدما وجدت قصرًا غاية في الجمال لأحد أثرياء العهد

البائد يباع في مزاد سري بسعر مغرٍ، فلم أستطع أن أضيع فرصة تذوق حياة القصور.

كان هذا حين تلقيت خطابًا من نازلي تبلغني بميعاد عودة ناريمان من باريس.

ليلى

الإسكندرية - 2015

تطلع دكتور طاهر إلى مقياس السمع الخاص بي، وفحص أذني وعاد مجددًا إلى مقياس السمع ونقل بصره بين التقرير الحديث والتقرير الأقدم ثم عاد ينظر لي بأسى وخلع منظاره الطبي ثم قال بهدوء:

- احنا مؤمنين بالقضاء والقدر يا آنسة ليلى؟

سمعته بصعوبة فهززت رأسي موافقة، فعاد لحديثه الهادئ:

- كل إنسان مبتلى بشكل ما... في من يمرض وفي من يفقد أولاده وفي من...

شرد ذهني وأنا أتأمله، كان دكتور طاهر وسيمًا رغم تجاوزه للستين، أي أنه في عمر أبي لو كان ما زال على قيد الحياة في مكان ما.

يا ترى كيف كان يبدو أبي؟ أنا لا أعرف شكله، رحل وترك أمي قبل أن تلد فلم يختزن عقلي أي ذكريات عنه، لا أعلم كيف كان يبدو، جدتي ناريمان لا تحتفظ بأي صور تخصه ولا تتحدث عنه مطلقًا إلا إذا ذكرت أخطاء أمي، فتقول إن زواجها من أبي كان أكبر أخطائها. لا أعلم كيف كانت طباعه... كيف كان يتحدث... كيف كان يفكر... يغضب... يضحك.

لا أعلم سوى أن اسمه إسماعيل كامل عبدالحي وذلك لأن اسمه

مذكور بعد اسمي في بطاقتي الشخصية. أحيانًا أراه في أحلامي، يتحدث إليّ، ربما لست واثقة أن هذا الذي أراه هو أبي بالفعل!

لكنني اعتبرته كذلك، واحتفظت بهيئته هذه في مخيلتي. كم أشتاق إلى عناقه الآن! أتمنى أن أجده بجواري ليخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام أو أكتشف محلًا أنه ما زال على قيد الحياة ويراقبني ليعرف أخباري ثم يقرر العودة لحياتي بعد كل هذه السنين.

- فكده يا ليلى إحنا محتاجين سماعة للأذن الشمال عشان ننقذ ما يمكن إنقاذه... السماعة هتمنع الأذن دي إنها تفقد السمع تمامًا زي الأذن التانية اللي ملحقناهاش للأسف.

- بس أنا مش متقبلة الفكرة.

- بس إحنا مضطرين يا ليلى... دي سماعة صغيرة جدًا جوه الأذن مش بتبان من شعرك، بس هتفرق معاكِ جدًا وهترجعي تسمعي كويس في الأذن دي.

أطرقت ببصري فنهض دكتور طاهر وأحضر صندوقًا خشبيًا من الدولاب خلفه ليخرج عدة أنواع مختلفة من سماعات الأذن، انتقى منهم واحدة ثم وضعها أمامي على سطح المكتب وبرغم من صغر حجمها كان لها وجود مادي رهيب.

- جربي دي يا ليلى.

تطلعت له ثم للسماعة ووضعته في أذني باستسلام.

إسماعيل

الإسكندرية – 2015..

اليوم هو عيد ميلاد ليلى ابنتي.

إنه عامها الرابع والثلاثون.

ابنتي الحبيبة التي تشبهني بشدة، ربما لا تبدو ليلى صارخة الجمال فهي لم تأخذ ملاحة أمها ذات الأصول التركية بل ورثت ملامحي المصرية الأصيلة، لكنها ستظل دومًا الأجمل بنظري.

انتظرتها كثيرًا في الشارع الصاخب حتى خرجت من البناية القديمة، يبدو أنها كانت عند طبيب ما. تتحرك بخفة كالعصفور الصغير، تبعتها بخطوات بطيئة وحرصت أن أبقي المسافة بيننا لا تزيد عن الخمس أمتار حتى لا تغيب عن نظري. إنها لا تعرفني للأسف بالرغم من حرصي على مراقبتها دون أن تشعر طوال هذه الأعوام.

مرّ أربعة وثلاثون عامًا منذ تم إقصائي عمدًا عن حياتها على يد حماتي ناريمان هانم.. تلك الشيطانة التي تختبئ خلف قناعها الملائكي. لا أحد يعرف ما حدث يومها فعليًا فقد قامت ناريمان هانم بنفي سرًا بلا شهود وأجبرتني على ألا أعود مجددًا لحياتهم ليترك غيابي فجوة نفسية في حياة ابنتي التي لم ترَني والتي لا تعلم لماذا رحلت وتركتهما هي وأمها بدون أسباب.

ناهد، زوجتي الرقيقة، التي كانت يومًا تلميذتي في كلية الصيدلة، وقعت في غرامها منذ اللحظة الأولى بالرغم من الفارق العمري بيننا

فقد كنت أنا في نهاية الثلاثينات وهي ابنة العشرون ربيعًا.

ما زلت أذكر لقاءنا الأول حتى يومنا هذا، لقد كنا في عام 1978.

كانت هي تجلس في المدرجات بين الطلاب، يحمر وجهها خجلًا كلما سددت لها نظراتي أو وجهت لها سؤالًا فتجيبني وهي تطرق بنظرها الأرض على استحياء:

سقطت صريعًا أمام جمالها الآخذ حتى إني أخطأت – على غير عادتي- وأنا أشرح لهم بعض النقاط. لاحظ الجميع خطأي الفادح فكدت أن أصحح خطئي لكن مايكل الطالب المثالي سبقني رافعًا يده لأسمح له بالحديث فقال مبتسمًا:

- اسمح لي حضرتك، كده تقصد الجلوكوكورتيكويد؟

احمرت أذني خجلًا فهذا خطأ لا يقع فيه طالب أحمق في عامه الأول وأبتسمت لمايكل قائلًا له:

- أنت صح، أنا بس سرحت غالبًا، آسف جدًا.

قلت جملتي الأخيرة وأنا أتطلع لها فخفضت بصرها وهي تبتسم خجلًا. وبعد انتهاء المحاضرة أستبقيت مايكل بعدما انصرف الجميع، ومايكل لم يكن مجرد طالب بل كنت أعتبره صديقًا مقربًا لي. جاء الفتى ليقدم ساقًا ويؤخر ساقًا قائلًا بأدب:

- أنا آسف جدًا لو أحرجت حضرتك، أنا مقصدش والله.

- لا، مش بندهك عشان كده، قولي مين زميلتكم الجديدة دي؟ ضيّق عيناه وهرش فروة رأسه كالآجرب لينشط ذاكرته قائلًا:

- قصدك مين؟ مفيش حد جديد.

- اللي كانت لابسة جونيلا سودا وبلوزة رمادي.

- آه، ناهد؟ لا دي مش جديدة، بس مكنتش بتحضر، بعيد عنك أمها ست صعبة ومنكدة عليها عيشتها.

همهمت قائلًا:

- أم متسلطة وبنت مقهورة يعني؟ هو مش الكلام دا انتهى من الستينات؟ هز رأسه وتطوع بالاسترسال بعدما أسند ردفيه على مكتبي:

- لا، صلها مش من النوع الثوري ده خالص، ناهد دي بنت هادية جدًا ومن عيلة كبيرة قوي، أبوها الله يرحمه صلاح فخري كان من الضباط الجيش التقال قوي، وأمها ناريمان المرغني من العائلات الكبيرة بتوع ما قبل الثورة، كان ليهم قصة مشهورة قوي كده أتكتبت في الجرايد لما أبوها مات.

- قصة إيه؟

- مش متأكد من التفاصيل بس كان في شبهة جنائية في وفاة أبوها والموضوع اتقفل لعدم وجود أدلة، قصة قديمة من عمر ناهد تقريبًا، الست الوالدة اللي حكيت لي لما بقولها إن معانا في الدفعة بنت ناريمان المرغني.

- طب وهي ناريمان المرغني دي مشهورة قوي كده عشان الست الوالدة تبقى عارفها؟

- آه، مشهورة في الوسط النسائي جدًا، عشان بتبيع دهانات وزيوت للعناية بالبشرة من النباتات الطبيعية هي اللي بتعملهم.. والدتي زبونة عندها من ساعة ما والدي ما توفى... أظن عايزة تتجوز تاني من بعد أبويا المقدس... مع إنها لو لفت الصعيد كله متلقيش تاني زي المقدس حنا سلام... بتروح لها يا سيدي تشتري منها كريم ينعم كعب الرجلين.. طب بذمتك مش كانت تجيب لأبويا شربة ولا أي حاجة تخففه من الإسهال اللي جاب آجلُه ده!

- يا أخي عيب عليك ده انت دكتور صيدلي قد الدنيا، كنت هتعالج أبوك بشربة وشوية عطارة؟

- لا، على فكرة ناريمان المرغني دكتورة صيدلانية وبتعمل تركيبات طبية مش أي هجس.

- فهمت... الله يرحمه.

خرجنا من قاعة المحاضرات سويًا وهو يسألني عن بعض النقاط في المحاضرة لكنني اعتذرت له عن الإجابة لشرودي الذهني وافترقنا عند كافتيريا الجامعة. طلبت لنفسي قهوة سادة وأنا مشوش الذهن لعل المشروب السحري يساعدني على ترتيب أفكاري. وجدت ناهد تجلس مع زميلاتها في الطاولة المجاورة تطالع كتابًا عن محمد عبد الوهاب، راقبتها قليلا ثم نهضت نحوها وأستأذنت بالجلوس. توترت قليلا وتطلعت لزميلتها التي سرعان ما أجابتني بترحاب:

- طبعًا يا دكتور، اتفضل، أنا كنت هقوم أجيب شاي بالنعناع، هجيب لحضرتك معانا.

همّت ناهد أن تقول شيئًا ولكن زميلتها أشارت لها بطرف عينها أن تصمت وانصرفت.

- أول مرة أشوفك النهاردا يا ناهد.

ابتسمت وقالت بصوتها الرقيق:

- كنت... كنت بذاكر في البيت وباخد المحاضرات من منيرة زميلتي.

- بس ضروري تحضري بعد كده عشان أعمال السنة... وبرضه الحضور أفيد بكتير من المحاضرات المكتوبة.

- أكيد.

- بتحبي محمد عبدالوهاب؟

قالت بصوت حالم:

- بحب المزيكا جدا، كان نفسي أدخل معهد الموسيقى بس مامي رفضت.

- وإيه دخل مامتك في الموضوع ده؟

هزت كتفيها وابتسمت بيأس، تأملت ساعتي... إنها الواحدة ظهرا، معاد اجتماع الحزب بعد ساعة، وددت لو ألقيت عليها بعض النصائح عن ضرورة تبلور شخصيتها وأن تكف عن الانصياع لأوامر أمها خاصة المتعلقة بتحديد مستقبلها واختياراتها، لكنني قد أفوت الاجتماع الهام. ربما غدا... لعلها حجة جيدة لأتحدث معها مجددًا.

- انتِ خلصتِ محاضراتك يا ناهد؟ تحبي أوصلك في طريقي؟

- آه، خلصت بس مفيش داعي تعذبك يا دكتور إسماعيل، وكمان أنا بستنى السواق.

- مفيش تعب ولا حاجة، طب حتى تعالي نتمشى لحد باب الجامعة... انتِ ساكنة فين؟

- في كفر عبدو.

أطلقت صفيرًا متظاهرًا بالدهشة رغم كون الأمر منطقيًا للغاية، أين قد تسكن سليلة الحسب والنسب هذه إن لم يكن في كفر عبدو... منطقة الأثرياء.

نهضنا سويًا في صمت واقتربنا من سيارتي الفيات الرياضية التي ما زلت أسدد أقساطها حين قفز ثلاثة رجال من سيارة شرطة كانت تقف خلف سيارتي وتابَطُوا ذراعي بحزم قائلين:

- دكتور إسماعيل، اتفضل معانا.

- على فين؟

- هتعرف.

- حضرتك معاك إذن اعتقال؟

ابتسم ساخرا وهو يجرني جرا بنوع من العنف فقد انتهت فرصتي في الحديث الراقي، ورد الآخر الذي كان يبدو أكثر تحفزًا:

- انت هتتفلسف علينا؟

لا جدوى من النقاش إذًا! إنه عصر الاعتقالات القسرية.

رمقت ناهد المذعورة تقف هناك وهي لا تعرف ماذا تفعل، فقلت لها ضاحكًا محاولًا أن أبدو متماسكًا:

- لا أهدي كده أمال! مفيش حاجة خالص، أنا متعود على الاستضافة دي كل كام شهر.

ولوحت لها بيدي بينما المخبر يرفعني رفعًا من على الأرض حتى يضعني في عربة الشرطة لالتقي بالداخل بعدد من الطلبة والزملاء أصحاب النشاطات السياسية. لم تطل التحقيقات هذه المرة عن الأسبوعين، وكنت أنا قد اعتدت على مثل هذه الاستدعاءات.

البلد كانت في حالة من الغليان، فقد مر عام ونيف على انتفاضة 1977 لكن الاعتقالات ما زالت مستمرة، ناصريين ويساريين وإسلاميين، لا فارق، فالجميع مدان في نظر نظام السادات الفاسد الذي أطلق على ثورة 1977 (ثورة الحرامية).

السادات لم يستوعب أن طاقة الشعب محدودة وأن صبره كان كالشمعة التي تحترق من الجانبين، ما لبث أن نفذ. لم يكد المصريون يفيقون من فرحة حرب أكتوبر 1973 حتى فاجأهم السادات في العام التالي بالقرارات والقوانين التي دشنت عهد الانفتاح، بهدف جلب المزيد من الأموال والعملة الصعبة.

هذا الانفتاح خلق في مصر طبقة استهلاكية وجاء بحفنة من المسؤولين من نوع جديد، إذ يتسمون بصفتين لم تكونا من سمات المسؤولين في الخمسينيات والستينيات وهما: القابلية للفساد من

ناحية، واللامبالاة بمتطلبات التنمية من ناحية أخرى.

هذه الأوضاع والظروف الجديدة كانت محل انتقادات الطبقة المتوسطة التي أنتمي لها، لذلك لم تمر القرارات التي أعلنها عبد المنعم القيسوني، نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية عصر يوم 17 يناير عام 1977، برفع أسعار السلع الأساسية من الخبز والسكر والأرز مرور الكرام. بل كانت إيذانًا بتفجر غضب بدأ لدى الشرائح الأكثر وعيًا بين الفقراء، العمال أو الطلاب على السواء. ومع ذلك لم تتوقف الاعتقالات حتى بعد مرور فترة على الثورة، وكنت أنا دائمًا على رأس قوائم الحزب اليساري. لكن الاعتقال لم يطل هذه المرة وأطلقوا سراحي بعد أسبوع واحد فقط. وعدت للجامعة بعد ثلاثة أيام أخرى من تاريخ إطلاق سراحي.

شكرَت دكتور عصام على تحمله لمحاضراتي حتى أعود للجامعة واضطررت أن أحتمل بنفاذ صبر ربع ساعة كاملة من النصائح الأبوية أن ألتفت لمستقبلي وأن أكف عن هذه السياسة (اللي هتوديك في داهية يا بني).

كنت متشوقًا لرؤية ناهد بشدة. بحثت بعيني عنها وسط المدرجات فلم أجدها. مر يومان وأنا أبحث عنها يوميًا في المدرج وفي باقي الجامعة، لكن لا أثر لها، لم أجد مفر من سؤال منيرة زميلتها بعد انتهاء المحاضرة إذا كانت بخير؟ فأجابتني بحرج قائلة:

- هي بس عندها شوية ظروف في البيت وهتكمل مذاكرة من البيت الترم ده.

- إيه الظروف دي؟ يعني إيه أصلًا تكمل مذاكرة في البيت وليه؟

- هي مامتها منعتها من نزول الجامعة هتيجي بس على الامتحانات.

وتركتني حائرًا غاضبًا لا أستطيع التفكير، تطلعت للتاريخ على السبورة 12-11-1978. تبقى ما يقرب من الشهر على امتحانات نهاية الفصل الدراسي الأول.

حسنًا... سوف أنتظرها.

ناريمان

القاهرة – 1958..

لم أكن أعلم أن خطاب أمي ورجاءها لي بالعودة لزيارتهم ما هي إلا خطة جديدة للاستفادة مني حتى النخاع، حتى أنها لم تستطع الانتظار حتى الصباح لتكشف الستار عن مخططها، بل أقامت حفلًا صاخبًا بمناسبة عودتي في نفس اليوم، وحينها قدمتني لصلاح فخري. المقدم صلاح فخري الذي علمت يومها أن هذا الحفل مقام على شرفه. قدمته لي أمي على أنه صديق الأسرة الذي لم يكف عن السؤال عن موعد عودتي من فرنسا.

تأملت صلعته اللامعة وشاربه الأسود الرفيع الذي يحاول به أن يتشبه بعبد الناصر، عيناه الضيقتان تتأملانني دون أن تطرفا، لا يكف عن تحسس أذنه المقطوعة بين الحين والآخر – نعم، لديه أذن تفتقد شحمتها – شعرت أنني رأيته من قبل لكنني لم أتذكر أين قد أكون التقيت به.

كان كريهًا لسبب غير واضح، لم أحب وجوده ولا حديثه، وتمنيت أن تنتهي الأمسية سريعًا للتخلص من هذا اللزج الذي يتظاهر بالود.

وفيما بعد، عرفت أنه ضابط في جيش الانقلاب، عرف عنه أنه فظ مع العساكر، مداهن لرؤسائه، فكان الرجل المثالي لهذه المرحلة المعتمدة كليًا على النفاق والرياء، وسرعان ما نال ترقيتين في وقت قصير للغاية ليشغل منصبًا كبيرًا في جهاز حساس، وقرر وقتها أنه بحاجة لصقل مظهره الاجتماعي حتى يتلاءم مع وضعه الجديد،

فتشبث بطبقة الـ Nouveau riche الذين ظهروا بعد الانقلاب والذين كان أغلبهم من القلة القليلة من البشوات أصحاب العلاقات الجيدة بالنظام الجديد أو ضباط النظام الجديد.

وصار يرتاد حفلات الأسر الراقية محاولًا الانخراط وسطهم، لكن هيهات، فملابسه غير متناسقة الألوان وطريقة حديثه السوقية التي يحاول بها أن يبدو متعاليًا تجعل عينك تلتقطه من وسط المئات. وفي الأيام التالية، تكررت زيارته لنا بشكل مبالغ فيه، أغدق علينا بالهدايا والورود، وحاول جاهدًا أن يبدو لطيفًا، لكنني لم أستطع ابتلاعه بالرغم من كل هذا، حتى رضا الخادمة كانت تأتي بصينية الشاي عابسة مكفهرة الوجه على غير عادتها، وعلقت مرة ساخرة على أذنه المقطوعة قائلة:

سلامتك ودنك يا باشا"، فضربتها ماما ضربًا مبرحًا يومها بعد انصراف صلاح، وكانت تعنفها بعصبية كل مرة تدخل لتقدم له الشاي وتجبرها على الابتسام له وهي تضيفه. لكنني كنت أتفهم مشاعرها، أن رضا بفطرتها الطبيعية شعرت أن هذا الرجل المنمق ليس سوى وغد يتخفى ببراعة وراء مظهر النبيل. لكنني لم أكن أهتم سوى بالأيام التي تبقت لي لتنتهي إجازتي وأعود لباريس لاستكمال دراستي.

ثم كان ذلك اليوم...

كنت أدون في قائمتي بعد المستلزمات التي أحتاج لشرائها قبل السفر حين صعقتني أمي قائلة وهي تتأمل القائمة:

- أنتِ بتعملي إيه؟ هو انتِ فاكرة نفسك مسافرة تاني؟

أصابني الذهول من جملتها التي قالتها بعدم اكتراث وهي تطلي أظافرها ثم أغلقت زجاجة الطلاء وتطلعت لي قائلة:

- أيوة... صلاح خطبك مني وأنا وافقت خلاص.

- بتقولي إيه يا ماما؟ أنا أتجوز صلاح ده؟

- مالو صلاح؟ شاب جنتيل جدًا ومستقبله مبهر، ده حتى لسه شاري قصر في أسكندرية في كفر عبده يهبلللل يا ناريمان، يهبلللل.

- ودراستي؟

- دراسة إيه وكلام فارغ إيه يا ناريمان؟! انتِ مش مقدرة حجم الكارثة اللي إحنا فيها! البيت مفهوش فلوس تكفينا نعيش لحد آخر الشهر وأنتِ بتتكلمي في دراستك؟ إيه الأنانية دي!

- وإيه دخل صلاح بالموضوع ده؟ ثم إن ده الوضع الجديد يا ماما ولازم نتأقلم عليه زي ما باقي الأسر اللي زينا عملوا. أنا قلت لك نبيع القصر وننقل في بيت أصغر في الزمالك وبفلوس البيت تقدري انتِ وبابا تعيشوا معززين مكرمين باقي حياتكم.

برقت عيناها ثم قالت في امتعاض:

- أنتِ أتجننتِ صح! عايزاني أنا نازلة هانم الأناضولي أبيع بيتي وأروح أسكن في شقة صغيرة زي بتاعة الفلاحين؟ انتِ عايزة كده يا ناريمان؟ عايزة ماما تتذل؟

- ده الأمر الواقع اللي لازم كلنا نسلم به، جوازي من صلاح مش حل.

- لا، الأمر الواقع إن المستقبل كله لصلاح وأمثاله، ولو مجرانهمش هنتداس بالرجلين.

- ده Nouveau riche يا ماما.

- النوفو ريش اللي مش عاجبك ده اللي فاتح البيت بقاله سنة يا ناريمان.

لم أنطق من الصدمة فأكملت حديثها بانفعال:

- أنا بعت المجوهرات اللي في الشكماجيه كلها وبعت عفش البيت كله وبقينا زي عثمان ورضا... معدمين... مكنش في فلوس ندفع علاج بابا... مكنش في فلوس ناكل يا ناريمان... صلاح عرض عليا إنه يتجوزك وقتها، وينتشل الأسرة كلها من الضياع اللي كنا رايحين له، صلاح اللي رجع الحياة للبيت ده، إحنا مدينين له بكتير قوي.

طال صمتي فنهضت هي وقالت بحزم:

- أنتِ هتتجوزي صلاح يا ناريمان، مفيش حل تاني.

رضا

الإسكندرية – 1959..

مر عامٌ منذ انتقالي إلى الإسكندرية مع ناريمان هانم في منزلها الجديد بعد زواجها من صلاح باشا. لم تُبدِ هي أي سعادة لزواجها من صلاح باشا، رغم محاولاتها التأقلم على حياتها الجديدة.

صلاح باشا أيضًا كان يسعى جاهدًا لإسعادها، لكنه بالرغم من محاولاته لنيل رضاها، كان شخصًا عصبيًا وقحًا لا يكف عن السباب والصراخ بدون سبب، حتى أن جميع الخدم كانوا يرتجفون لدى عودته من الخارج لعلمهم أن حياتهم على وشك أن تتحول لجحيم إذا همس أحدهم أو تعثر بالخطأ وهو يعبر أمامه.

أردتُ كثيرًا أن أخبرها بما أعرفه عن الباشا وعلاقته بنازلي هانم، لكنني كنت كلما أوشكت على الحديث، انعقد لساني خوفًا. بالطبع لم أستطع أن أخبرها عن ما حدث في تلك الليلة المشؤومة ولا عن سبب إصابة أذن زوجها المصون، فأثرتُ الصمت ليموت السر معي، خصوصًا بعدما وجدته يحبها حقًا ويسعى لإرضائها، فظننت أنه ربما أراد الله أن يهديه على يديها، ومن ستره ربه لا يصح أن يفضحه عبده. لم تستطع ناريمان هانم السفر مجددًا إلى بلاد الخواجات بالطبع، وهو ما كان يحزنها كثيرًا. لا أتفهم فيما قد تفكر الفتيات حين تصمم على الاغتراب عن أهلها والعيش وحيدة من أجل حفنة من الكتب التي لا تسمن ولا تغني من جوع، كيف ستنفعها هذه الكتب إذا ما تزوجت وطلب منها زوجها أن تصنع له الشركسية؟

لكن ناريمان هانم كذلك كانت عنيدة للغاية فلم تستسلم لرغبة زوجها في هجر التعليم، وقدمت في جامعة الإسكندرية دون علمه. أمضت عامًا كاملًا تذهب يوميًا لحضور دروسها في الجامعة صباحًا بعد ذهابه للعمل، وتعود قبل قدومه لتتظاهر بالكسل قائلة إنها تشعر بالإرهاق الشديد لدرجة أنها لم تغادر المنزل اليوم قط.

استمر الحال على هذا الوضع حتى جاء ذلك اليوم... خرجت ناريمان هانم بعد خروج الباشا مباشرة، وكان يوم امتحانها، سهِرت طوال الليل في غرفة جانبية تراجع دروسها في كتاب عملاق بعد نوم الباشا، وفي الصباح انطلق هو، وتبعته هي في خفة، ولم تمر سوى ساعة حتى وجدنا الباشا قد عاد ويتبعه فرج السائق يحمل الكثير من الصناديق، بعضها صناديق جاتوه من جروبي وبعضها صناديق هدايا، وأمر فرج أن يضعهم على الطاولة وأخذ ينادي بصوته الجهوري على الهانم وهو يضحك وقال لي باسما:

- حضري السفرة ورصي الجاتوه، أنا بعت جبته مخصوص من جروبي في القاهرة، الست هانم أختي جاية تزورنا النهاردا.

وعاد ينادي عليها، وعندما لم تجِبه عقد حاجبيه وسألني:

- الهانم فين؟

تلعثمت وقلت كلامًا متضاربًا، فلم يسمعني، وانطلق كالثور الهائج يبحث عنها في أرجاء البيت، وعندما لم يجدها عاد إليّ وأمسك بذراعي بعنف حتى كاد يخلعه وهو يسألني عنها بجنون، ثم لطمني فسقطت أرضًا وأنفي ينزف. وحين عادت ناريمان هانم بعد ساعتين، كان هو بانتظارها في غرفة الصالون. سألها بهدوء:

- أين كنتِ؟

تطلعت لي وأنا أجلس أرضًا باكية في ركن الغرفة وياقة قميصي تتلون بدمائي الجافة.

هرولت تجاهي وهي تصيح:

- أنتِ عملتِ لها؟

فنهض كالوحش الثائر وانتزعها انتزاعًا من جواري، وعاد يسألها صارخًا:

- بقولك كنتِ فين؟

تمالكت أعصابها وقالت بهدوء:

- كنت في الجامعة.

رسم على وجهه أعتى علامات الدهشة قائلًا:

- جامعة إيه؟

- أنا قدمت عشان أكمل في جامعة الإسكندرية أول ما اتجوزنا، والنهاردا خلصت آخر امتحان يا صلاح.. فاضلي سنة وأتخرج. صمت وترك ذراعها ثم انسحب إلى مكتبه بهدوء، بينما انهمكت هي بفحص أنفي والاطمئنان عليّ.

- ناريماااااان نهضت واتجهت ببطء لمكتبه.

- أقفلي الباب وراكي.

وعندما أغلق باب المكتب سمعنا الهانم تصرخ وتستغيث. حاولت

أن أفتح الباب لكنه كان موصدًا من الداخل. استمر صراخها لمدة عشر دقائق، ثم ساد الهدوء، وخرج الباشا من الغرفة مبعثر الثياب، أحمر الوجه يتصبب عرقًا، وأمرني أن أتصل بالحكيم ليحضر ويفحص الهانم.

وعندما حضر الحكيم أخبرنا - وهو يتطلع للباشا بنظرة اتهام - أن الهانم كانت حاملًا في شهورها الأولى لكنها فقدت جنينها إثر ضرب مبرح.

ليلى

شعرت بالانبهار بعدما خرجت من عيادة د. طاهر.

رباه! الأصوات مجسمة بشكل لا يصدق!

كل شيء كان يبدو جميلًا، حتى نعيق الغراب المدوي بدا لي محببًا. رفعت رأسي أتأمله وهو يتنقل بين فروع الأشجار. كادت سيارة مسرعة أن تدهمني وأنا أعبر الشارع بينما عيناي متعلقتان بالغراب، فأطلق السائق نفيرًا عاليًا كاد أن يقتلع قلبي من مكانه ذعرًا.

السائق يسبني، لكن الابتسامة البلهاء عادت لوجهي، ورفعت كفي معتذرة عن حماقتي.

يا إلهي.. اشتقت لهذه الضوضاء بعدما قضيت العامين الماضيين في هدوء الصمم الكئيب.

السماعة تؤلم أذني، فأنا لم أعتدها بعد. خلعتها لأعدل من وضعها فوجدت نفسي أسقط في بؤرة الصمت المرعب مجددًا. انقبض قلبي وأعدتها لأذني سريعًا، لن أتخلى عنها مهما حدث، إنها بارقة أملِي الوحيدة.

توجهت إلى منزلي سيرًا على الأقدام وابتعت ثلاث علب أرز باللبن من صابر، لي ولجدتي ولدادة رضا. استطعت أن أجيب سؤال البائع عن طلبي دون مساعدة، فخرجت من المحل سعيدة كالعصفور.

وصلت إلى بيتي ودفعت الباب الحديدي الثقيل. بحثت عن جدتي مسرعة لأزف لها الخبر، لم أجدها في الحديقة، فأسرعت إلى المعمل

الذي تصنع فيه منتجاتها بمساعدة دادة رضا، لكن المعمل كان مظلمًا. ألتقطت أذني صوت عزف بيانو بديع يتسلل عبر الجدران، فرقص قلبي طربًا.

أيعقل؟ الجدة ناريمان عادت للعزف على البيانو؟

كانت قد هجرت البيانو العتيق وامتنعت عن العزف عليه بعدما كسرت كلامها والتحقت بمعهد الموسيقى لتعاقب نفسها على السعي في توطيد علاقتي بالموسيقى وصارت تشير له دائمًا (بالزفت) حتى لا تذكر اسمه.

ربما اشتاقت له فاستغلت فرصة غيابي عن المنزل لتعزف سرًا؟ صعدت إلى المنزل واتجهت إلى غرفة البيانو. العزف الشجي مستمر...

الإضاءة الصفراء تتسرب من تحت باب الغرفة.

طرقت الباب، فتوقف العزف بغتة.

فتحت الباب ببطء...

إسماعيل

الإسكندرية – 1979

عندما عادت ناهد لتحضر امتحانات نهاية الفصل الدراسي، صممت على الحديث معها. انتظرت أن أراها في كافتيريا الجامعة. أنهيت سجارتي الخامسة وفنجاني قهوة حتى ظهرت هي مع صديقتها.

جميلة هي... بشعرها الأسود الثقيل وعينها الزرقاء.

أنيقة بثوبها الأسود الطويل المحتشم على عكس ما هو شائع هذه الأيام. جلست على الطاولة المقابلة... تبتسم بحياء لدعابات صديقتها وتطالع كتابًا عن تاريخ الموسيقى العربية. نهضت من طاولتي واتجهت إلى طاولتها، فوجدتها تتأملني برعب غير مفهوم وهي تطلع حولها.

- ممكن أقعد؟

أجابتني بتردد:

- اتفضل يا دكتور.

تأملتها لبرهة في صمت ثم قلت لها مبتسمًا:

- كنتِ فين الفترة اللي فاتت دي؟

- كنت بذاكر في البيت.

- مش قلنا لازم تحضري؟ انتِ في كلية عملي يا بنتي!

صمتت وظلت تطلع حولها بقلق.

- أنتِ كويسة؟

- آه... لا... بص، مش عايزك تزعل مني بس أنا لازم أمشي، مش هينفع نفضل قاعدين مع بعض.

نهضت مسرعة وتركتني قبل أن أستوعب ما حدث. لم أنم ليلتها وأنا أحاول أن أفهم رد فعلها العجيب. هل ضايقتها بجلوسي معها؟ لكنها كانت لطيفة في المرة السابقة ولم تعترض على حديثنا السريع. هل أرتبطت؟ ربما... لكن خنصرها الأيمن كان خاليًا من أي قيود ذهبية. لا شك أن موقف اعتقالي هو ما أثار ذعرها. فقررت أن أتحدث معها مجددًا لأفهم سر كل هذا الذعر.

في صباح اليوم التالي كان يوم محاضرة دفعتها. انتظرت حتى انتهت المحاضرة وأستبقيتها بعد انصراف الجميع. فوقفت في حرج وهي تطلع إلى الزملاء الذين يرمقونها بنظرة ذات مغزى وتحدثت برسمية:

- حضرتك كنت عايزني يا دكتور؟ عشان بس السواق مستني.

- أنتِ مضايقة مني في حاجة؟

صمتت لوهلة ثم حزمت أمرها وقالت:

- والدتي الفترة اللي فاتت كانت منعاني من نزول الجامعة، السواق حكى لها عن يوم ما اتقبض عليك وأني كنت معاك. يعني أنا مكنتش لي علاقة بالموضوع لكن اتعاقبت واتخدت في الرجلين بسببك.

صعدت الدماء إلى رأسي وقاطعتها بعصبية:

- ثانية واحدة، يعني إيه تمنعك من نزول الجامعة!!! انتِ عندك كام سنة يا ناهد عشان تخضعي للقمع ده؟

- قمع إيه! دي ماماه!

- أمك يعني تضيع مستقبلك! وتمنعك تدخلي معهد الموسيقى اللي انتِ عايزاه وتغصب عليكِ صيدلة؟ ويا ريتها سايبَكِ تلتفتي لدروسك وتحضري... دي كمان حبساكِ!!

تجمعت الدموع في مقلتيها وانهَمَرت دمعة حارة فاعتصرت قلبي. خفضت من نبرة صوتي وقلت بهدوء:

- أنا خايف عليكِ يا ناهد، مش قصدي أضايقك، فوقي! إحنا مش في الأربعينات.

- خايف عليا ليه؟ أنا معرفكش وإنت متعرفنيش.

صمت ولم أستطع أن أفسر سبب إنفعالي الحقيقي من أجلها. لا أعتقد أنه من المنطقي أن أذكر لها الآن انجذابي الشديد لها. أعطيتها بعد المحارم الورقية لتمسح دموعها التي انحدرت على وجنتيها شديدة الحمرة، فظهر شبح ابتسامة سريعة على وجهها وانصرفت بهدوء.

في الأيام القليلة اللاحقة، صارت أهدأ وأكثر تقبلًا لوجودي حولها، فصرنا نتقابل يوميًا بعد المحاضرات وبدأت تستمع لحديثي باهتمام وتدافع عن أمها وقراراتها التعسفية تارة وتوافقني تارة أخرى، لكنها كانت توافقني على استحياء، فهي بالرغم من ضيقها ترى أن أمها ضحت بحياتها ولم تتزوج مجددًا بعد وفاة والدها لتتفرغ لتربيتها،

وهو الأمر الذي لا أرى فيه أي نوع من التضحية.

- يا ناهد، إنك تختاري تبقي أم، دا بيجلب عليك مسؤوليات تجاه ابنك وبنتك، وواجب عليك تعمليه، دا مش اختيار أصلًا، هي مش بتمن عليكِ أنها بتربيكِ، دا دورها.

- وأنا مقولتش حاجة، بس واجب عليا أسمع كلامها برضه، هي كانت عايزني أدخل صيدلة عشان أبقى فاهمة في شغلها وأساعدها.

- وكتر خيرك لحد كده ضحيتي بحلمك ودخلتِ صيدلة عشانها، مفيش حاجة اسمها تحبسك في البيت عشان السواق شافك واقفة مع زميل ليك في الحرم الجامعي.

ضحكت وقالت:

- مانت مش أي زميل برضه، انت مسجل خطر ومطلوب من كل الأجهزة الأمنية.

لم ترق لي الدعابة لكنني ابتسمت رغمًا عني لضحكتها الخلابة، وقاومت بصعوبة رغبتي في لمس أناملها الدقيقة. لا أعلم كيف تطور الأمر سريعًا بيننا ولا متى وجدتني أعترف لها بحبي وبرغبتي أن أقترن بها لنكمل حياتنا سويًا. لكنني بعد ستة أشهر وجدتني أجلس في صالون قصر ناريمان هانم أنتظر مقابلتها لأطلب يد كريمتها. القصر العريق الذي يعود للثلاثينات...

تأملت الحوائط المطلية بلون قاتم يميل للخضرة والمزخرفة بلون ذهبي براق، الأنتيكات القديمة المتناثرة، البساط الإيراني الذي تنغرز فيه قدمك حتى الكاحل.

شعرت بالتضاؤل كجلبيرت في بلاد العمالقة. لا أخفيكم سرًا أنني للحظة شعرت أنني بحاجة للهروب قبل مقابلة أمها. كيف بربكم لهذه الفتاة التي تسكن في هذا القصر المبهر أن تتقبل المعيشة معي في شقتي الـ80 مترًا فوق سطح بناية في حي الأنفوشي؟

كدت أنهض وأطلق ساقي للريح لولا أنني سمعت الخطوات الأنثوية وشممت رائحة العطر القوي، فنهضت لاستقبال القادم. وجدت أمامي سيدة في بداية الأربعينات تشبه لناهد كثيرًا، لكن جمالها يضاهي ملاحة ابنتها، ترتدي ثوبًا أسود راقيًا يبين خصرها الرفيع، وشعرها الأسود الكثيف ينسدل بقوة فيتوه في سواد الثوب حتى لا تدري أيهما الثوب وأيها شعرها. مدت كفًا بلوريًا تبرز منها العروق لتصافحني قائلة:

- ناريمان المرغني.. والدة ناهد.

- إسماعيل.. معيد في كلية صيدلة وزميل ناهد.

- اتفضل يا دكتور.

جلست برشاقة في وضع ملكي وأشعلت سيجارة ثم قالت بوجه خالي من الانفعالات:

- خير... ناهد قالت لي إنك عايز تقابلني.

- ناهد ما بلغتني... المقابلة بخصوص إيه؟

- ولو بلغتني... أحب أسمع منك.

تحدثت قليلًا عن نفسي وعن ظروفي الاجتماعية وعملي وخطتي

المستقبلية وأبحاثي في علم العقاقير ورغبتي في الزواج من ناهد، لكنها ظلت تستمع لحديثي بنفس الوجه الخالي من الانفعالات. دفنت سجارتها في مطفأة على شكل صدفة عملاقة تبدو باهظة الثمن وقالت بهدوء:

- دكتور إسماعيل، انت عارف ناهد عندها كام سنة؟ عندها 20 سنة. عايز تتجوز طالبة عندك عمرك قريب من ضعف عمرها تقريبًا؟

- ناهد مش طفلة أبدًا حتى لو سنها صغير، لكن عاقلة ومدركة تمامًا هي عايزة إيه. أعتقد أن حضرتك نفسك اتجوزت في نفس السن عشان تكون صغيرة كده وعندك بنت في سن ناهد.

- الزمن غير الزمن يا دكتور، أنا اتجوزت في سنها آه، لكن كنت مغصوبة على الجواز... ومكنش ليا حرية الاختيار. وجوزي منعني أكمل تعليمي، وأنا معنديش استعداد المأساة دي تتكرر مع ناهد.

- بالعكس، أنا عايز ناهد تكمل تعليمها، وبعد إذن حضرتك...

قاطعتني في نفاذ صبر:

- وهتسكنها في شقة على السطوح في الأنفوشي؟

صمتت لوهلة ثم قلت لها بحقة:

- أنا مستقبلي إن شاء الله كويس جدًا وأنا بفكر اهاجر أنا وناهد..

تعالت ضحكتها وتطلعت لي قائلة والضحكة الساخرة لم تفارق عينها الزرقاء:

- متأكد من موضوع مستقبلك دا؟ يعني بما إنك كل يوم والتاني

مشرف في حضن البوليس السياسي، صدقني يا دكتور إسماعيل، أنا مش هقدر أعمل في بنتي كده. ناهد عيلة وشبطانة في لعبة الجواز دي، بس طالما اللعبة دي مش في مصلحتها أنا مش موافقة... ومتقلقش أنا هعرف إزاي أنسيها.

ابتسمت لها ببرود وقلت:

- آه... هتحبسيها في البيت تاني عشان متشفونيش؟ على فكرة... انتِ بتعملي فيها بالضبط نفس اللي أهلك عملوه معاكِ.

أشتعلت عينيها بالغضب ونهضت هامسة بوحشية لا تتناسب مع صغر حجمها:

- لو عرفت أنك قربت من ناهد تاني هندمك باقي عمرك.

تلاقت عينانا في تحدي واضح ثم انصرفت من القصر، وقد عزمت أنني لن أترك ناهد ما حييت...

ناريمان

الإسكندرية -1967

ثماني أعوام من الغربة والشقاء في قصر صلاح شكري. طلبت الطلاق كثيرًا بعد وفاة أمي التي كانت تنهرني عن الفكرة كلما تحدثت عنها، فكنت أتلقي صفعاته الشرسة ردًا على طلبي، أحيانًا كان يشعر بالندم ويحتضنني بعدها بحب محاولًا الاعتذار، معدًا أنه لن يكرر فعلته مرة أخرى، لكنها سرعان ما تعود لطبعه عند أول خلاف. بكيت كثيرًا حتى جفت دموعي، ومع الوقت اعتدت استقبال الركلات واستكمال يومي بصمت دون انتظار اعتذارات لا معنى لها أو وعود لا تنفذ. أدركت أنه لا مهرب من هذه الحياة القاسية التي غرقت فيها حتى الثمالة فاستسلمت للأمر الواقع.

أراقب ناهد ابنتي الجميلة ذات الثماني أعوام تلهو في بهو القصر وأفكر في مصيرها بقلق إذا ما حدث وأغضبت أباها يومًا ما! هل سيوسعها ضربًا وركلًا هي الأخرى؟

أشعر بالذعر إذا تعالى صوتها بمرح وهي تلعب بينما هو يغفو، فقد أثبت لي صلاح أنه مختل عقليًا ولا يشعر بنفسه حين يغضب، لا أستبعد أن ينهض من فراشه كالشيطان ليفتك بالصغيرة لأنها فقط أقلقت نومه.

ناهد الصغيرة تقبل وجنتي وتحتضنني بحب وهي لا تعلم بالمخاوف التي تدور برأسي... رباه... كم أحبها رغم أنها أتيت للعالم بدون إرادتي، فأنا لم أرغب في الإنجاب مجددًا من صلاح أبدًا بعدما

فقدت جنيني الأول على إثر ضرب مبرح تلقيته منه يوم علم أنني أذهب للجامعة بدون علمه.

أذكر أنه جلس يومها على حافة فراشي يبكي على ما اقترفته يداه وهو يتحسس بيده ساقي التي تغير لونها للأزرق بسبب الكدمات المتناثرة ووعدني ليلتها أنه لن يكرر فعلته هذه أبدًا ولا بأس إذا أردت أن أكمل تعليمي. وعندما تعافيت من أثر ضربه لي، طلبت منه أن يمتثل لوعده ويسمح لي بالعودة لجامعتي لكنه رفض بالطبع، فقد شاء القدر أن أحمل منه مجددًا بعد ثلاثة أشهر.

فقط تكرم وسمح لي بفتح مشروع صغير (عشان تشغلي نفسك شوية عن موضوع التعليم دا) كما قال لي، فبدأت مشروعي حينئذٍ وهو تصنيع دهنات للبشرة ومستحضرات تجميل مستخلصة من خامات طبيعية كنت أزرع معظمها في حديقة القصر. وصرت أبيع منتجاتي لدائرة المعارف المحدودة التي كونتها منذ انتقلت للإسكندرية، سيدات المجتمع الراقي، وبدأ اسم منتجاتي ينتشر رويدًا رويدًا بين هذه الطبقة وصارت النساء تتردد على قصرنا نهارًا بالطبع في ظل عدم وجود صلاح ليشتروا المنتجات ويعرفوا الأنواع الجديدة التي قمت بتركيبها وخلطها بمساعدة رضا خادمتي التي بدأت في تعليمها أسرار الخلطات وتركيباتها. ومن ضمن السيدات التي كانت دائمة التردد على... ميرفت هانم... أحدث عروس في المجتمع الأرستقراطي السكندري.

كانت تأتي في البداية مع أمها ثم أصبحت تأتي وحدها بعدما تزوجت من أحد الممثلين السينمائيين متوسطي الشهرة. أذكر أنه في

إحدى المرات سألتني وهي تشم أحد الدهانات:

- يعني كل المنتجات دي حاجات تحلي الستات في عيون أجوازهم، طب مفيش حاجة توحش الستات في عيونهم؟

ابتسمت لها في عدم فهم، فقالت لي وهي تكشف ثوبها عن كدمة قبيحة على فخذها المرمري:

- عايزة حاجة تبعد جوزي عني شوية، بيطلبني كل يوم في السرير... وبعنف يا ناريمان.

شعرت بحرج من حديثها الجريء ولما أجيبها، أنا أعلم ما تتحدث عنه بالتفاصيل للأسف فقلت لها:

- اتحججي أنك تعبانة مثلًا.

فابتسمت بمرارة وهي تتأمل خاتم زوجها الذهبي ذو الفص الأحمر القاني:

- ولا بيفرق معاه دا زي التور مبيتهدش ولا بيتعب... حيوان.

ثم عادت لمرحها المعتاد قائلة:

- انتِ مش صيدلانية وبتفهمي في الوصفات والتركيبات، اعمليلي حاجة للموضوع دا وهدفعلك اللي انتِ عايزاه.

ودفعت ثمن الدهانات التي ابتاعت، وكادت أن تنصرف لكنها عادت لي قائلة وهي تغمز بعينها:

- أو حاجة تخلصني منه للأبد.

رضا

الإسكندرية - 1967:

ازدهرت تجارة ناريمان هانم الجديدة، أم هل أقول الدكتورة ناريمان صاحبة الخلطات السحرية التي تستطيع أن تحيل الصخر إلى حرير؟ صارت الهوانم تتردد على قصرنا كالذباب ليشتروا الدهانات تلك التي تنعم البشرة وذاك التي تصنفر الكعوب والأخرى التي تورد الخدود.

علمتني الدكتورة جميع الوصفات واعتبرتني مساعدتها بل وخصصت لي شهرية من بيع المنتجات.

ازدهرت حياتي وصرت أدخر الأموال التي أكسبها من عملي النهاري مع الهانم وأخبئها تحت البلاطة السادسة في حمام الغرفة التي منحها لنا صلاح باشا أنا وفرج سائق الباشا لنتزوج بها. لكن فرج كان يجد الأموال دائمًا في كل مرة مهما حاولت أن أنتقي مخبًا صعب الوصول إليه، يستولي عليها ويصرفها على الحشيش ليعود للمنزل يوميًا بعد منتصف الليل مسطولًا ليوسعني ضربًا بلا سبب وينام أو يخرج ليتلصص على صلاح باشا وهو يضاجع الهانم من شرفتهما الأرضية، لطالما تلصص عليهم رغم محاولاتي أن أنهره عن استباحة حرمة رب عمله.

أتأمله بغل وهو يغط في نعاسه بينما أتحسس ذراعي الذي يؤلمني من إثر ضرباته:

- نااااام نامت عليك حيطة.

يا ليتني أستطيع أن أقتله وأخلص من بطشه وقهره أو أقتل جميع الرجال... لقد أدركت أنه لا توجد امرأة لم تسلم من شرور الرجال، حتى الدكتورة ابنة الحسب والنسب يصبحها زوجها ويمسيها بعلقة ساخنة.

بالأمس جاءت لزيارتنا ميرفت هانم المائعة... ترتدي ثوبًا أحمر فاقعًا وتضحك ضحكاتها الرقيعة. لم أحبها قطًا وأحمد الله أن صلاح باشا لا يكون بالبيت حين تأتي هذه الفتاة، وبالرغم من زواجها مؤخرًا لكنها كانت تزداد مجونًا في كل مرة. سمعتها تتحدث بالأمس مع الدكتورة بلا حرج ولا خجل عن زوجها الذي يعاشرها كثيرًا وتريها فخذها الأبيض المربرب وما به من آثار للجماع، بل والأدهى أنها تطلب منها أن تخترع لها وصفة تجعل زوجها يزهد بها. لا تدري الحمقاء أي نعمة تمتلكها، تريد زوجًا لا يعاشر؟ فلتأخذ فرج الذي أثر الحشيش على قدراته فصار لا يقوى حتى على ترقيص حواجبه. لكن الدكتورة بدت مهمومة للغاية وظلت تطالع الكثير من الكتب وتدون في دفترها بعض الأشياء ثم أرسلتني لشراء كمية كبيرة من زيت الكافور وزيت النعناع وبذور الكتان، وسهرت الليل تقوم بخلطة جديدة ثم قامت بتعبئتها في زجاجة. وعندما جاءت ميرفت هانم بعد أسبوع كان الحل السحري ينتظرها في الزجاجة، تحسستها بأظافرها المصبوغة بالأحمر ودفعت جنيهان عن طيب خاطر. اللطيف أنني رأيت ناريمان هانم تضع بضع قطرات يوميًا من هذه التركيبة سرًا لصلاح باشا في حساء العدس الذي يحبه ولا تخلو منه مائدة الطعام أبدًا، فضحكت في سري وقلت: رب ضارة نافعة. وبعد شهرين عادت ميرفت هانم عابسة الوجه وقالت للدكتورة:

- الشايب قرر أنه عايز يتجوز عليا! فاكر أن أنا اللي سديت نفسه عن الـ... ميعرفش أنه هو اللي بقى مش نافع!

ضحكت ناريمان هانم قائلة:

- طب وإنتِ إيه اللي مزعلك؟ مش اترحمتِ منه؟

برقت عيني ميرفت في وحشية:

- ولما يروح هناك ويبطل ياخد من التركيبة في الأكل وشوية شوية يرجع تمام مع مراته الجديدة، يطلقني بقي وأطلع خسرانة!!

صمتت ناريمان هانم فقامت ميرفت لتجلس أمامها مباشرة قائلة بعصبية:

- أنا عايزة حاجة تخلصني منه يا ناريمان قبل ما يتجوز... أنا لازم أورث... وهدفعلك اللي انتِ عايزاه كله.

نهضت الدكتورة وتركها قائلة:

- انتِ مجنونة يا ميرفت؟

- ساعديني أرجوكِ.

- بلاش جنان.

نهضت بعنف قائلة:

- لو ما عملتيليش اللي أنا عايزاه هقول لصلاح جوزك أنك بتديله من التركيبة دي في الأكل وشوفي بقى هيعمل فيكِ إيه!!

تطلعت لها ناريمان هانم في دهشة. فابتسمت ميرفت هانم

بسخرية وقالت:

- أمال إيه... فاكرني مش عارفة؟ دانا ميرفت... مفيش حاجة تستخبى عني.

صلاح

الإسكندرية 1967..

عام النكسة هو الأصعب في حياتي بأكملها. تم اتهامي بالإهمال ونجوت بأعجوبة من المحاكمة العسكرية وذلك نظرًا لتاريخي الطويل المشرف في خدمة البلد. لكنني كذلك تم إقالتي في صمت وهم يتحاشون نظراتي... إن الأمر ليس إلا تصفية حسابات، فقد اتفقوا على إقالة بعض القادة لتهدئة الرأي العام، وتم الاختيار بعشوائية بحتة. يرمون علي عاتقي نكستهم ويغمضون أعينهم عن كبار القادة الذين اشتركوا في تزييف الحقيقة، عاملين بمبدأ (مقدرش على الحمار اتشطر على البردعة). خرجت يومها من مبنى الوزارة خائر القوى وكأنهم أزهقوا روحي بسكين بارد، تطلعت للشارع من حولي وأنا لا أقوى على الحراك لا أعرف كيف سوف أعود لمنزلي الذي لا أذكر أين هو. وحين عدت أعتكفت في مكتبي لأيام بينما ناريمان لا تكف عن التساؤل إذا ما كنت بخير.

مرارة النكسة امتزجت بشعوري بالقهر فجف حلقي وعجزت عن الحديث وإجابة أسئلتها. لم تقتصر النكسة على البلاد بل تمكنت مني حتى النخاع وأصابت حياتي كلها بالشلل. ففقدت شغفي لكل شيء بعد إقالتي... لم أعد أكل وفقدت نصف وزني... حتى النساء زهدت فيهن جميعًا. ناريمان زوجتي التي لا تختلف عن أي تمثال شمع بلا أي روح والتي صرت لا أشتهيها مطلقًا منذ ما يقرب من العام، وحتى ميرفت عشيقتي الحسناء اجتنبتها لفترة طويلة وتوقفت عن مقابلتها. أعترف أنها استطاعت أن تجدد في روح الشباب بعدما

أعادتني لمغامرات الماضي فوجدت في أحضانها رغبتي المفقودة، لكنني لم أكن رائق البال هذه الفترة فلم أجب اتصالاتها على مدار شهر كامل.

لم أستطع أن أخبر ناريمان بخبر إقالتي بالطبع فكنت أتظاهر بالذهاب للعمل يوميًا بكامل حلتي الرسمية حتى لا تشك في أمري، ثم أعود للمنزل بعد عدة ساعات أقضيها أتسكع في الشوارع أو الجلوس في المقاهي، أجلس صامتا على طاولة الطعام... أقلب حساء العدس بشرود وشاشة التلفاز لا تقف عن إذاعة أخبار عبد الناصر المهموم بينما ناريمان لا تكف عن سب عبد الناصر وقراراته العنجهية.

بالطبع، إنها تشعر بالانتشاء. إن فشل عبد الناصر لهو انتصار ساحق لطبقتها البائدة بأكملها. لا تكف عن الحديث والتحليل والتفنيد وقد أثبتت صحة رأيها الذي لطالما انتقد ناصر وحكومته، وأنا على رأسهم. تدخن سجارتها بعصبية وتقول:

- الغبي! ... لسه بيعافر؟ مجاش من وراه غير الخراب هو وكل أتباعه القذرين.

لم أعد أحتمل المزيد من الحديث، فنهضت ثائرًا وقلبت الحساء أرضًا فتناثرت القطرات الساخنة على قدمها وصرخت متألمة، وجلست أرضًا تبكي وهي تنظر لي بمقت، بينما هرولت إليها رضا الخادمة مغمغة بسخط:

- ليه كده بس يا صلاح باشا... أستغفر الله العظيم!

تطلعت لناهد ابنتي التي اختبأت خلف المقعد باكية، وشعرت بالخجل قليلًا فانسحبت من المشهد ودخلت مكتبي لأتصل بميرفت. خرجت من المنزل هاربًا لصومعتي، تلك الشقة الصغيرة التي قمت بإيجارها لمقابلة ميرفت.

فتحت الباب فوجدتها هناك في انتظاري.. احتضنتني وهي تقبلني بشوقٍ فجردتها من ملابسها في الحال، كما أن غضبي ساعد في تأجيج شهوتي ولا أريد أن أفوت هذه الفرصة التي صارت نادرة الحدوث، لكن قبل أن ألمسها رن جرس الباب بإلحاح. توترت ميرفت قليلًا وتوارت في دورة المياه عارية بينما فتحت الباب أنا لأجد ناريمان تقف أمامي وعيونها الغاضبة ترمقني بنظرات لو كانت تقتل، لكنت نسيًا منسيًا...

ليلى

الإسكندرية – 2015

فتحت باب الغرفة فتوقفت الموسيقى بغتة.

ما هذا! لا أحد هناك والغرفة معتمة تمامًا.

من أين جاءت الإضاءة التي رأيتها من تحت الباب إذًا؟

دخلت للغرفة المظلمة ببطء، أتحسس الحائط بأناملي بحثًا عن زر الإضاءة الذي أذكر أنه بجوار الباب الآخر للغرفة. سوف أمشي عدة خطوات في الظلام حتى أصل للزر إذًا... لا أعلم، لكن لوهلة التقطت سماعتي حفيف خطوات على الأرضية الخشبية، ثم زادت سرعة الخطوات وكأن أحدهم يهرول هاربًا في الظلام... خيل إلي أنني شعرت بحركة من خلفي لكنني لا أرى أي شيء في هذا الظلام اللعين.. شعرت بذعر فدورت حول نفسي وبرقت عيني في محاولة مني لرؤية ما يدور من حولي لكن عيني لم تعتد الظلام بعد.

لا أرى شيئًا وما زالت الخطوات تتعالى هنا وهناك.

- مين؟ مين هنا؟

صرخت في الظلام وأنا أسند ظهري للحائط لأحمي نفسي وفجأة أطبقت قبضة باردة كالثلج على ذراعي فتعالت صرختي وسقطت فاقدة للوعي. حين فتحت عيني كنت مستلقية بفراشي وجدتي تسحب مقياس الحرارة من تحت إبطي الأيمن وتفحص حرارتي وبجنبها دادة رضا تغمغم بشيء ما لا أسمعه.

جدتي أيضًا تتحدث ولا أسمع ما تقوله بوضوح. تحسست أذني ببطء، السماعة ليست هناك!

ذهني مشوش للغاية، ماذا حدث؟

تطلعت لجدتي قائلة:

- مين... مين كان في الأوضة؟ كان فيه حد في الأوضة بيعزف على البيانو؟

تبادلت جدتي ودادة رضا النظرات وقالت شيئًا لم أسمعه فاشرت إلى أذني قائلة:

- ال... ال... السماعة بتاعتي فين؟

التقطت جدتي السماعة من على الطاولة المجاورة وأعطتها لي، وضعتها في أذني فسمعت باقي الجملة التي كانت تقولها:

- وانتِ إيه اللي دخلك الأوضة دي أصلًا؟

انتبهت حواسي فأعتدلت في جلستي قائلة:

- مين اللي كان في الأوضة؟

- محدش كان هناك يا ليلى... إحنا لقيناكِ بتضرخي جينا جري لقيناكِ واقعة على الأرض... من إمتى بتدخلي الأوضة دي؟

- كان فيه حد بيعزف في الأوضة يا جدتي!

- يا ليلى الأوضة مقفولة بقالها كتير... حتى رضا بطلت تنضفها من يجي سنتين معلًا.

صمت أمام إصرارهن، هل كنت واهمة؟ تحسست ذراعي التي شعرت بالقبضة الثلجية تعتصره وأرحت رأسي فعادت جدتي تسألني:

- إيه حكاية السماعة دي؟

فحكيت لها ملخص مقابلتي مع الطبيب وأنني بدأت في استخدامها من اليوم.

- يعني سامعة دلوقتي كويس؟

هززت رأسي مبتسمة فرددت دادة رضا دعاء لي بطول العمر والشفاء وخرجت فقالت لها جدتي قبل أن تغادر:

- استني يا رضا أنا جاية معاكِ.

ونهضت بعدما ربطت على رأسي قائلة:

- مبروك السماعة.

ولحقت بدادة رضا، لم أرَ أنا وقتها تبادل نظراتهم القلقة ولم أسمع حديثهن الذي قيل همسًا وهن يبتعدن عن باب حجرتي.

- وبعدين يا ناريمان هانم... ليلى بدأت تسمع!

غمغمت جدتي قائلة:

- ماتقلقيش... ما كانت بتسمع زمان عادي بس عمرها ما أخدت بالها.

- معلوم... بس الموضوع زايد حبتين اليومين دول.

صمتت جدتي وهي تطلع لها بقلق ثم افترقا وذهبت كل منهن إلى غرفتها.

إسماعيل

الإسكندرية – 1980

مرت خمسة أشهر على زواجي من ناهد، بالطبع لم تعلم أمها شيئًا عن زواجنا هذا، لكننا كنا ناضجين بما يكفي لنقرر ما هو صالح لنا ونحدد مستقبلنا سويًا بدون تدخل أمها الخاشم . بذلت مجهودًا كبيرًا لأقنع ناهد بالفكرة و أساعدها على التخلص من ترددها وخوفها، وانتظرنا حتى تمت عامها الواحد و العشرين وتزوجنا ليلتها. قضينا فترة هي الأسعد على الإطلاق، لا هم لدينا سوى ألا تشعر أمها بأمر زاوجنا هذا حتى تتخرج ناهد من كليتها. لكن الرياح تأتي دائمًا بما لا تشتهي السفن، فقد بدأت أمها تشك في أمرها على الرغم من حرصنا على قلة اللقاء، وصارت تضيق عليها الحصار وتستجوبها حتى اعترفت لها ناهد بزواجنا.

ثارت الأم وتقدمت بشكوى ضدي في الجامعة بأنني أجبرت ابنتها على الزواج مني مستغلًا نفوذي بالجامعة مهددًا بأنني سأجعلها ترسب في مادتي، وتم وقفي عن العمل لحين الانتهاء من التحقيقات في الواقعة.

لكن ناهد حاولت الانتحار على إثر قرارات أمها، فتراجعت الأم عن كل هذا خوفًا على حياة ابنتها الوحيدة، وتقبلت بالأمر الواقع ووجودي في حياتهم على مضض، لكنها رفضت تمامًا أن تذهب ناهد لتعيش معي بشقتي، وصممت على بقائي معهم بالقصر.

لم أشعر براحة لهذا القرار لأنني لم أحب أن تتأكد لديها شكوكها

أنني تزوجت ناهد طمعًا في ثراءها، لكنها أصرت.

عدت للجامعة بعد سحب الأم شكواها وشهادة ناهد بأنها تزوجتني بدون أي ضغوط، ثم انتقلت للمعيشة معهم بالقصر الكئيب وسط أجواء من الكراهية ونظرات المقت من ناريمان هانم ورضا الخادمة التي تكرهني بطبيعة الحال بسبب كره سيدتها لي.

لكنني تجاهلت كل هذا وركزت على حياتي الجديدة السعيدة مع ناهد الحبيبة التي كانت منطلقة كالعصفور الصغير، فقد شعرت أنها لأول مرة انتصرت على رغبة أمها وحققت ما أردته هي وليس ما تريده أمها لها، وكانت تشعر تجاهي بالامتنان الشديد فلولا تشجيعي لها لما خرجت من سجن أمها.

وكنا نجلس يوميًا في غرفة البيانو لتعلمني العزف الذي كانت تجيده هي، وحين نمل الموسيقى ننتقل بعد الظهر إلى حديقة القصر متشابكي الأيدي ونخطط لمستقبلنا سويًا ونحن نحتسي الشاي بالنعناع... أمد أناملي لأداعب نباتات ناريمان هانم التي تراعيها بنفسها، أعرف بعضهم بحكم خبرتي بعلم العقاقير الذي يعتمد في كثير من الأحيان على النباتات، وقراءاتي المتنوعة عن النباتات، بينما تعلق ناهد على اسم كل نبات:

- دا يا سيدي الكاميليا سينينسيس.. ماماه بتستخدمه في كريمات محاربة الشيخوخة الجلد.. ودا بابونج بتستخدمه في كريمات بتخلي البشرة تهدأ من الاحمرار وحروق التعرض للشمس ودا بقى البيلادونا الي ماماه بتستخدمه في القطرات الي بتوسع العين عشان العيون تبقى حلوة كدا وواسعة.

- دا تقريبًا واخد مساحة أكبر من باقي النباتات.

- آه عشان دا تقريبًا أكتر منتج ماما بتبيعه.

ضحكت قائلًا:

- إيه دا؟ أنا متوقعتش الصراحة إن الحاجات دي بتتباع أصلًا!

- يووووه دا ماما بتبيع كويس جدًا.

دخلت سيدة جميلة ترتدي ثوبًا أسود من بوابة القصر وأشرت لناهد بتحية ما، فبادلتها ناهد التحية، ثم التفتت إليّ ناهد قائلة مفسرة:

- أهي دي ممثلًا واحدة من الي بيشتروا الكلام دا... دي مدام بولينا، مرات واصف الجوهرجي من أغنى أغنياء مصر، زبونة ماماه من زمان، وبتسوق لها كمان عند قراييها وأصحابها.

وأشارت لنعي في الجريدة وهي تكمل حديثها:

- جوزها تعيش انت... مات من أسبوعين الحمد لله.

- بتقولي الحمد لله؟ إيه الشر دا؟

- ماهو أصله كان مطلع عينها وكل شوية تيجي لماماه مضروبة يا حبيبتي... بس الحمد لله خلصت منه.

- عمري ما فهمت الراجل الي بيستقوى على واحدة ست ويضربها.

قلبت شفتها بامتعاض وتحاشت نظراتي، شعرت بالأسف لقولي السابق فأنا أعلم كيف اعتاد أباها أن يضرب أمها أمامها وهي طفلة.

لم تمضِ سوى عشر دقائق ودخلت سيدة أخرى إلى حديقة القصر، فعادت ناهد مرشدتي الخاصة تشرح لي وهي تشير للسيدة التي ترتدي السواد أيضًا:

- وأدي زبونة تانية... المكلبظة دي بقي يا سيدي، مدام مديحة، دي مثال حي للصبر، جوزها كل شوية بيخونها مع ست مختلفة وهي صابرة، وفي الآخر طردها من بيتها ملكها عشان كان بيستعد عشان يتجوز عليها في بيتها، تخيل!

- يا ساتر على قلة الأصل، و لابسة أسود برضه؟

- ما هو برضه ربنا أراد إنه يرحمها منه واتوفى من شهر قبل ما يتجوز عليها وورثت كل فلوسه.

- برضه؟ انتِ كل زباين الست الوالدة مبيعيش لهمش رجالة؟

وعقدت حاجبي بحيرة، إن الأمر يبدو أغرب من كونه مصادفة عادية، لكنني صمت وأنا أتطلع للسيدتين تقبلان وتحتضنان ناريمان هانم بحرارة ويطلقان ضحكات مجلجلة لا تتناسب مع السواد الذي يرتدينه وحالة الحداد.

لاحظت ناريمان نظراتي لضيفاتها فرمقتني بنظرات نارية، التفت لناهد وأكملنا حديثنا الباسم لكنني لم أسمع معظم حديثها فقد شرد ذهني في هذه الملحوظة الغريبة.

ناريمان

الإسكندرية – 1967..

لم يكتفِ صلاح بضربي وإهانتي وإحالة حياتي لجحيم، بل إنه يخونني أيضًا مع تلك الساقطة التي كانت تريدني أن أساعدها على قتل زوجها!

في البداية كان الأمر مجرد شكوك تراودني بعدما هددتني ميرفت بإفشاء سر استخدامي للشراب المهدئ مع صلاح، فكيف لها أن تعرف هذه المعلومة إلا إذا تطرق حديثهم بشكل ما إلى حديث جنسي! فقررت أنني يجب أن أراقبه.

و عندما حدثت النكسة وانقلبت الأحوال رأسًا على عقب، فوجدت صلاح الذي كان يخرج ليلًا كل يوم لا يغادر مكتبه طوال اليوم. تناسيت الأمر لفترة ولن أنكر أنني كنت قد بدأت أتعاطف مع حالة الحزن المخيمة عليه بالرغم من كل شيء، لكن مكالمة تليفونية من مرفت على مكتب صلاح تلقتها رضا وهي تنظف المكتب، أعادت إلي الشكوك مرة أخرى.

فقمت بمراقبته ذلك اليوم، كنا قد تشاجرنا نوعًا ما على الغداء فخرج غاضبًا من المنزل. أوقفت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يتبع سيارته. توقفت سيارته أمام بناية في ستانلي ومكث في السيارة قليلًا ثم ظهرت ميرفت بسيارتها وتوقفت سيارتها أمام سيارته وابتسمت له ثم صعدت إلى البناية. لم تمضِ سوى خمس دقائق حتى ترجل من السيارة هو أيضًا ولحق بها.

وقفت أمام البناية أتطلع لها والدموع تنهمر لا إراديًا. اقتربت مني زوجة حارس العقار وسألتني:

- يلزم خدمة يا ست هانم؟

- آه... شقة ميرفت هانم، أي دور؟

- الدور التاني شقة 4.

حين وقفت أمام الباب سمعت صوت ضحكها المجلجل. وددت لحظتها لو أنني فررت من المكان، وعدت لمنزلي لأجلس وأنتظره مع ناهد متظاهرة بأن شيئًا لم يكن، لكنني لم أستطع ووجدتني أدق الباب. فتح لي الباب صلاح وارتبك لدى رؤيتي فدفعته ودلفت إلى داخل الشقة أبحث عنها حتى وجدتها... عارية في دورة المياه. في البداية غمر الذهول ملامحها ثم سرعان ما تدركت الأمر ورسمت على وجهها أقبح ابتسامة انتصار رأيتها في حياتي.

خرجت من الشقة وأنا لا أشعر بما يدور حولي. سمعته يتحدث عن الفضائح وسمعتها تقول له أن يتركني لأنني لن أستطيع فعل أي شيء. لكن صوتهم كان يأتي من بعيد كأنني قد غمرت رأسي تحت الماء. لا أعلم كم من الوقت مضى وأنا أمضي في الطرقات باكية، تائهة، بلا هدف حتى، عدت للمنزل في كفر عبده مشيًا على الأقدام لا إراديًا. جلست بصمت ودموعي تفيض أنهارًا. جاءت رضا من الداخل فوجدتني على حالتي فذعرت وأخذت تبسمل وتحوقل وهي تحتضني متسائلة. أجبتها من بين دموعي:

- بيخونني يا رضا، بعد كل القرف اللي أنا مستحملاه ده.. كمان

بيخونني.

- يا ابن الحراااام، انتِ تتخانِي انتِ؟ هو كان يحلم بواحدة زيك ترضى تتجوزه، ده انتِ بنت آكابر.

ثم عادت تحتضنني وهي تندب حظي:

- ديل الكلب عمره ما يتعدل والنجس يفضل نجس!

مسحت دموعي وقلت لها:

- أنا مش هقعد ولا يوم واحد تاني معاه. أنا هطلق حتى لو هضطر أسيب له كل حاجة، أخد ناهد بس وأمشي من هنا.

اختفت رضا للحظات وعادت بكوب من الليمون المثلج وجلست أمامي بتردد وبدأت كأنها تريد أن تقول شيئًا والتردد يمنعها لكنها حسمت أمرها فأطلقت زفرة حارة وقالت بصوت مهتز:

- يا ناريمان هانم، في سر أنا عارفاه ولازم حضرتك تعرفيه عن صلاح باشا ونازلي هانم الله يرحمها.

وضعت كوب الليمون على الطاولة واستمعت لحديثها الصادم الذي قلب حياتي رأسًا على عقب.

رضا

الإسكندرية - 1967:

لم أستطع كتمان سره عن ناريمان هانم أكثر من ذلك، خاصة بعدما عرفت أنه لم يستقم في سيره مثلما كنت أظن، لكنه أجاد إخفاء قذراته ليس إلا.

أصيبت الهانم بصدمة أفقدتها النطق لمدة 3 شهور متواصلة. دار بها زوجها الخائن على حكماء مصر وبلاد برة وكأنه – اللعين – لا يعلم سبب علتها، أو لعلها يشعر بالذنب لما فعله بها. لم تنجح الأدوية ولا وصفات الحكماء في شفاءها فظلت في صمتها ثلاثة أشهر لا تفعل شيئًا سوى المكوث في غرفتها ليل نهار تقرأ في كتبها الطبية العملاقة.

بعد الثلاثة أشهر بدأت تخرج من غرفتها لتقضي اليوم في المعمل وعادت لعملها بقوة وبدون حديث كثير، مجرد تعليمات بسيطة بإحضار لها الزيوت والبذور والنباتات.

لاحظت أنها تقوم بخلطة جديدة لا أعلم كينونتها تعتمد بشكل أساسي على نبات ست الحسن الذي يتدلى من شجرته ثمرة تشبه الباذنجان، ذلك الذي جاءت ببذوره في رحلتها الأخيرة مع الباشا لبلاد الخواجات، لكنني لم أزعجها بكثرة أسئلتي فكنت أساعدها في صمت. بينما بدأ صلاح باشا محاولة التقرب منها مجددًا ليحسن الأوضاع، العجيب أنها لم تكن ترفضه!

بل وكانت تبتسم له بصمت حين يقبل رأسها قبل نزوله لعمله. لم

أفهمها، حاولت أن أسألها برفق لكنها لم تجِبني سوى بكلمة واحدة فقط:

- الصبر...

فصبرت على ما تفعله وصبرت على تحسن علاقتها بزوجها القذر الذي عاد يغدق عليها من الهدايا ما يكفي أهل كفر عبدة بأكمله، بينما أوقفت هي وضع الزيت الذي اعتادت أن تضعه له في حساء العدس أيضًا، فجن جنوني وعدت أذكرها إذا كانت قد نسيت أن تضع الزيت. هزت رأسها نافية. عدت أسألها مرة أخرى عما تفعله وكيف تسامحت مع أفعاله:

- الصبر يا رضا.

ثم كان ذلك اليوم... كنت أعد طعام العشاء حين دخلت الهانم لتشرف على اللمسات الأخيرة للأكل ورفعت غطاء طنجرة الحساء وأخرجت من جعبتها زجاجة خضراء اللون، ترددت للحظة وأغمضت عينها وهي تتمتم بشيء غير مسموع وكأنه دعاء، ثم فتحت عينيها ووَضَعت خمس قطرات في الطنجرة وقلّبت الحساء ثم تطلعت إلى عيني التي تملؤها الفضول قائلة بحزم شديد:

- رضا... من هنا ورايح محدش يشرب من العدس اللي هيتعمل في البيت... سامعة؟

هززت رأسي وبلعت أسئلتي بصمت.

لعله نفس الزيت، وغيرت الزجاجة فقط... لكن التحذير شديد اللهجة هذه المرة، فهي لم يسبق لها أن تحذرني من تذوق الحساء

بزيت الكافور من قبل، بل إنها أخبرتني أنه لا أثر له على السيدات، وحتى عندما سرق زوجي طبقًا من الحساء يومًا وأخبرتها بقلق، فضحكت قائلة إنه سوف يزيده خمولا على خموله لا أكثر. لكنني قررت أن أطيعها دون أسئلة مثلما اعتدت أن أفعل دومًا.

في الأيام التالية مرض صلاح باشا بشدة.

صلاح

الإسكندرية – 1967..

لا أعلم ماذا دهاني حقًا، لقد تمكن مني المرض فجأة وبدون سابق إنذار.. أتراه ذنب ناريمان؟ لا أعلم.. ربما، لقد جرحت كرامتها جرحًا بليغًا. إن رؤيتي تلك الليلة مع ميرفت في الشقة كانت أقوى من قدرتها على الاحتمال، صدمة قوية فقدت على إثرها قدرتها على الحديث لفترة لا بأس بها.

شعرت بذنب كبير، فناريمان طوال فترة زواجنا لم يسبق لها أن فعلت أي شيء يضايقني في الواقع بخلاف تلك المرة التي علمت أنها تذهب للجامعة دون علمي.

لقد كنت قاسيًا معها بدون مبرر واضح طوال العشر سنوات الماضية، حتى أنني رفضت أن أطلقها حين طلبت هي ذلك أكثر من مرة، رغم اكتشافي أنني لا أحبها مطلقًا وأن الأمر لم يكن سوى حب امتلاك بحت حتى عندما زهدت فيها وصرت لا أقرب لها وفضلت عليها ميرفت، أصرت على إبقائها على ذمتي، مجرد قطعة أثاث ثمينة في القصر أتباهى باقتنائها أمام أصدقائي.

وبالرغم من كل هذا، حين عدت للمنزل تلك الليلة وجدتها هناك ولم تترك البيت كما توقعت أن تفعل.

وفي الأيام التالية، حاولت كثيرًا أن أعوضها عن ما بدر مني من إساءة في حقها طوال السنين الماضية، وقد أقسمت أنني لن أقوم بإيذائها مرة أخرى.

في البداية، لم تستجب لمحاولاتي، ثم بدأت تلين رويدًا رويدًا، فبدأت تتقبل أن ألمسها بعدما كانت تنفر بذعر من لمستي لها وصرت آخذها بأحضاني باشتياق حقيقي.

لكنني فجأة مرضت ولازمت الفراش.

لا أذكر كيف بدأ الأمر، لكنني صرت مجهدًا بشدة ولا أقوى على مغادرة الفراش، أشعر بضيق التنفس بين الثانية والأخرى بينما تقرح جلدي وأمتلئ بالبقع الحمراء... ثم القيء المستمر والإسهال الفتاك، قضيت أيامًا لا أخرج من دورة المياه خوفًا من أن ألوث فراشي بالبراز. وبدأت الهلاوس البصرية تهاجمني بعنف.

تحير الأطباء في حالتي، سحبوا عشرات العينات من دمي ولم يجدوا ما يريب، حللوا مئات العينات من برازي لكنهم لم يصلوا إلى سبب مرضي. فكانوا ينصحونني بالراحة وأكل طعام صحي والكثير من الأدوية التي لم تحسن حالتي على الإطلاق. أما ناريمان، فكانت تبدو قلقة للغاية، تجلب الأطباء في مختلف المجالات، تسألهم عن حالتي باهتمام، وإذا كان هناك شيء مريب يظهر في تحاليلي، تقف في المطبخ لتحضر لي الطعام الذي أحب وتطعمني الحساء بنفسها وتسهر الليل بجواري لتحكي لي قصصًا ممتعة لتخفف عني الألم الذي أشعر به... لا أذكر أننا كنا بهذا القرب من قبل، وبالرغم من تعبي وشعوري باقتراب النهاية، إلا أنني كنت سعيدًا بوجودها إلى جواري وعشقت صوتها الهادئ وهي تقص لي تلك المجموعة المختارة من القصص عن نساء عبر التاريخ أجادوا استخدام علم العقاقير لصالحهم من كتاب عملاق عن تاريخ جرائم العقاقير.

- وقصة جوليا توفانا دي بقى يا سيدي أكتر قصة حبيتها في الكتاب ده، وأنا في فرنسا، الدكتورة اللي كانت بتدرس لنا علم العقاقير حكيت لنا قصتها برضه. دي ست إيطالية عاشت في القرن التمنتاشر، جوزها كان بيخونها وبيضربها، وفي العصر ده مكنش فيه طلاق للأسف، فما كانتش عارفة تخلص من استبداده.

غمغمت مبتسمًا بصوت منخفض لا أقوى على رفعه من التعب:

- راجل عبيط وغبي!

ابتسمت وهي تناولني ملعقة أخرى من الحساء، الحساء الذي أعرف جيدًا أنني سوف أتقيأه خلال ربع ساعة غالبًا. أكملت حديثها:

- جوليا قررت تقتل جوزها بطريقة مبتكرة محدش يحس بيها أبدًا، فأخترعت سمًا من نبات اسمه البيلادونا وخلطته بنسب بسيطة من السيانيد، سم عبقري يا صلاح... ملوش لا طعم ولا ريحة ولا لون، كام قطرة في الشوربة وجوزها بدأ يتسمم... الفكرة إن السم ده طويل المفعول مش بيموت على طول... لا... ده بيعذب الشخص اللي بياخده حوالي أسبوعين تلاتة مثلًا...

قاطعت حديثها وتقيأت كل ما أكلته في السلة التي وضعتها بجواري أرضًا، تقاطعت أنفاسي بينما مسحت هي فمي بمنشفة مبللة بزيت النعناع ومدت يدها بمحارم ورقية لتمسح قطرات العرق من على جبهتي. أردت أن أرفع يدي لأتحسس وجنتيها الوردية لكنني لم أجد القوة الكافية... فتحت فمي لأتحدث لكن لم أجد صوتي يخرج من حنجرتي، شعرت بذعر شديد وحاولت جاهدًا أن أتكلم مجددًا لكن لساني خذلني، فوضعت هي إصبعها على فمي لتمنعني من

الحديث وقالت هامسة وهي تبتسم:

- أنت عارف إني زارعة شجرتين بيلادونا في الجنينة تحت؟ اه ... جبت بذور كتير معايا من فرنسا لما سافرنا أنا وإنت سوا آخر مرة.. من ضمنهم البيلادونا.

لم أفهم ما تقوله، ووضعت يدي حول عنقي وأنا أشعر باختناق شديد، بينما لساني الذي أصابه الشلل يتحرك بعصبية بلا جدوى. ناريمان تطلع إلي وتبتسم... اللعينة، ماذا دهاها؟

قالت وهي تقوم لتحضر زجاجة من درج مستحضرات التجميل:

- حاسس باختناق ولسانك مش متحكم فيه؟ متقلقش، انت بس مش هتتكلم تاني خلاص.. دا بقى آخر عرض من أعراض البيلادونا يا صلاح...

جحظت عيناي بشدة وأنا أتطلع إلى الزجاجة الخضراء التي وضعتها بجوار رأسي على الوسادة وهي تنظر في ساعتها قائلة:

- كدا أقدر أقول إنك هتموت في خلال... من أربع لست ساعات.

حاولت أن أتشبث بطرف ثوبها لكنها ابتعدت مسرعة فسقطت أرضًا عاجزًا عن الحركة. اقتربت مني بضع خطوات وانحنت على رأسي هامسة:

- مع السلامة يا صلاح، ابقي سلم لي على ماما وقلها ناريمان عرفت كل حاجة.

وتركتني وانصرفت. ثم أغلقت عيني للمرة الأخيرة.

ليلى

الأسكندرية – 2015..

عدت لعملي ولحياتي الروتينية بسعادة بالغة، فقد علمتني الأزمة الماضية أننا نعتاد وجود النعم فلا نشعر بترفها إلا عندما نفقدها. وعودة السمع إليّ ولو بنسبة بسيطة كان حدثًا جللًا يستحق الاحتفاء، فجلبت شوكولاتة ووزعتها على الطالبات، وعدت لمنزلي اليوم مشيًا على الأقدام بعد طول انقطاع عن عادتي المحببة.

دخلت للحديقة وألقيت تحية مرحة على جدتي ودادة رضا، كانا يتشاجران على مدى صلاحية نبات الياسمين هذا العام، فلم ينتبها لي في البداية، ثم أشارت دادة رضا قائلة:

- حالًا هندخل وأحضر الغداء.

فابتسمت وتركتهن لمشاجرتهن... إن علاقتهن معقدة للغاية، هي أبعد ما تكون علاقة سيدة وخادمتها، بل هي مزيج من أختين أو صديقتين يتشاجران أحيانًا ويسهران للصباح يتسامران أحيانًا أخرى. دخلت حجرتي وأرتميت على فراشي أتطلع للسقف، لا أعلم متى غفوت لوهلة، لكنني استيقظت على صوتهم الذي بدأ يتعالى. تطلعت لساعتي، لقد مر ما يقرب من النصف ساعة، لقد طال الشجار هذه المرة ولا أرى داعٍ لحدته في الواقع.

سمعت جدتي تتحدث منفعلة:

- انتِ عارفة كويس أوي قد إيه هو كان مؤذي من أول يوم دخل حياتنا وقد إيه أنا استحملته وجوده عشان خاطرك.

عن ماذا تتحدث؟ عن نبات ما؟ لا يبدو أن هذا هو مجرى الحديث. نهضت من الفراش متجهة للشرفة لأرى ماذا يحدث هناك، جدتي ما زالت تتحدث بانفعالٍ بالغ، لكن هذه المرة خرج صوتها صارخًا بهستيرية أثارت الذعر في قلبي:

- انتِ فضلتيه على أمك أكتر من مرة! ودلوقتي كمان هتقفي في صفه تاني وعايزة تأذيني؟

ولعجبي، عندما اقتربت من الشرفة لاحظت أن الصوت لا يأتي من ناحية الحديقة، بل والأدهى أنني لم أجد أحدًا في الحديقة.. لا جدتي ولا دادة رضا! أين كانا يتشاجران إذًا؟

دخلت غرفتي وكدت أن أعود إلى فراشي، لكنني وجدت الباب يدق ودخلت جدتي مبتسمة. نظرت لها بوجه ممتقع فقالت بتوتر:

- مالك يا ليلى؟ انتِ كويسة؟

- جدتي حضرتك لحقتِ تطلعي هنا بالسرعة دي؟ ما شاء الله عيني عليكِ باردة!

عقدت حاجبيها بعدم فهم ثم قالت:

- لا أنا طلعت أوضتي وراكِ على طول ساعة ما جيتِ من برة. هتتغدي؟

تبعتها وأنا أتساءل في سري لماذا كانت تتشاجر مع دادة رضا؟ من هو هذا الذي اختارت رضا صفه؟

جلست على المائدة وأخذت أُقلب حسائي بشرود، فقالت جدتي

بضيق:

- يا تاكلي يا تقومي، شغل تخبيط المعالق في الطبق دا مش شيك خالص يا ليلى.

- ابتسمت ورشفت رشفة من الحساء وأنا أتجنب أن يتعالى صوت الرشفة حتى لا تقيم علي الحد، وسألتها:

- كنتِ بتتخانقي مع دادة رضا ليه؟

قالت شيئًا عن مدى حماقة رضا وعدم فهمها لطبيعة النباتات بعد كل هذا العمر من التعليم فيها، لكنني قاطعتها قائلة:

- مين دا اللي كنتِ بتقولي لها "انتِ فضلتيه عن أمك أكتر من مرة ودلوقتي بتاخدي صفه وعايزة تأذيني؟"

سقطت الملعقة من يدها وتطلعت إلي بنظرة صامتة وقالت:

- انتِ سمعتِ الكلام دا فين؟

إسماعيل

الأسكندرية – 1981..

مر عام آخر على زواجي من ناهد. لم تخلُ حياتنا من المشاكل بالطبع، بل تصاعدت وتيرة الأحداث بعد اعتقالي لثلاث مرات في عام واحد حتى أن عميد الكلية هدد بفصلي نهائيًا إذا لم أتراجع عن نشاطي السياسي، فقررت أن أغلق فمي قليلًا. إن فقداني لوظيفتي ومصدر دخلي الوحيد ليس بالشيء اللطيف الآن، خصوصًا مع انتظاري لمولودتي القادمة. ناهد العزيزة حامل في شهرها الثامن.

لا شيء كان يضاهي فرحتنا بهذا الحدث الجلل، حتى ناريمان توقفت عن الشجار مع ناهد وكأنها عقدت هدنة صامتة حتى لا تزعج ولي العهد المنتظر.

كانت فترة هادئة للغاية.. لن أنكر أنني كنت أفتقد هذا الروتين الهادئ الذي لم أتذوقه طوال العشر سنوات الماضية، فقررت الاسترخاء وإغلاق عيني عن ما يحدث في البلاد، فصرت أقضي يومي في الجامعة بين المحاضرات والجلوس في حجرة المعيدين لبقية اليوم أستمع لحديث دكتورة سلوى ودكتورة سناء المسلي عن أسعار الخضار وأنواع مساحيق الغسيل الجيدة، أما موضوع اليوم فقد كان شائقًا للغاية:

- هي دكتورة نجوى لسه مرجعتش؟

- لسه يا سناء، زعلانة على جوزها بقى، الله يرحمه.

- ياختي قولي الله يجحمه مطرح ما راح! دي كانت كل يوم قافشة

مع عيلة من دور عياله.

- على رأيك! شوفتيها يوم العزاء؟ دا وشها ورد يا سناء.

- ما هو كان قاهرها يا عيني، إلا هو مات إزاي؟ دا صغير!

- بتقولك جاله دور برد على شوية ترجيع وإسهال، رقدوه في السرير أسبوعين بالعدد، جابت له دكتور قالها شوية برد في المعدة، بعدها بيومين هووووب السر الإلهي طلع.

ابتسمت ودفنت سجارتي في فنجان القهوة الفارغ لأنهض مبتعدًا عن قعدة السيدات تلك. خرجت من الجامعة ووقفت أمام بائع الجرائد أطالع عناوين الصحف بفضول ثم ابتعت مجلة الكواكب لناهد ورأيت مفكرة جميلة الشكل عليها برج إيفيل، ابتعتها أيضًا ربما أشغل وقتي بكتابة المذكرات مثل المراهقات!

ثم عدت للمنزل مباشرة فقد توقفت عن الذهاب إلى اجتماعات الحزب كالأيام الخوالي.

ناهد الجميلة تقف هناك في منتصف الحديقة تسقي إحدى الأشجار بعناية وهي تدندن أغنية قديمة لليلى مراد، حضنتها بهدوء وقبلت جبينها العاجي.

- قولتِ لي دي شجرة إيه دي؟

- دي البيلادونا.

جلسنا نحتسي الشاي بالنعناع الذي جلبته لنا دادة رضا العجوز وأخذت ناهد تسألني عن أحوالي في الجامعة وسألتني بحذر إذا ما

كنت قد قابلت أحدًا من أعضاء الحزب اليوم، فهززت رأسي نافيًا. أنا أعلم أنها لا تريد أن تضايقني ولكنها قلقة بالطبع. إنها لا تستطيع أن تسبر أغواري لتعرف إذا كنت قد قررت الابتعاد عن السياسة حقًا أم أنني أدبر شيئًا من وراء ظهرها. احتضنتها مطمئنًا، ربما لا أستطيع أن أعدها بالابتعاد عن مسيرتي السياسية للأبد، لكنني لن أفعل شيئًا الآن على الأقل.

دخلت سيدة من البوابة المفتوحة وتطلعت للقصر ثم رأتنا فاتجهت إلينا وألقت تحية على مسمع ناهد ثم سألتها:

- هي دكتورة ناريمان موجودة؟ أنا عندي معاد معاها.

هززت ناهد رأسها ونهضت لتخبر أمها بقدوم الزائرة بعدما طلبت منها الانضمام لمجلسي في الحديقة لحين حضور أمها. شعرت بحرج شديد وتشاغلت بمطالعة كتاب ناهد الذي تركته على المقعد، لكنني شعرت أنها تنظر لي بتمعن فرفعت عيني للحظة لأجدها تتأملني بالفعل. الغريب أنني شعرت أنها مألوفة لي، يبدو أنها تبادلني الشعور ثم تحدثت قائلة وهي تضيق عينيها:

- دكتور إسماعيل صح؟ الله! هو حضرتك تقرب لدكتورة ناريمان؟

ابتسمت في حرج وتلعثمت قائلًا:

- آه... مدام ناريمان تبقى حماتي... هو حضرتك...؟

- الله! انت مش عارفني؟ أنا دكتورة نجوى.. معاك في قسم العقاقير.. ولا هتعرفني إزاي مانت عمرك ما بتقعد معانا.

ابتسمت وتذكرت أنني لا بد أنني قد رأيتها من قبل في الكلية

بالتأكيد. مددت يدي مصافحًا وقلت بحزن مصطنع:

- البقاية في حياتك، أعذريني أنا مجتش العزاء بس أنا شفت النعي اللي متعلق في الكلية متأخر.

- أبدًا ولا يهمك.

قاطعتنا ناريمان هانم بحضورها، ابتسمت لي في برود واحتضنت دكتورة نجوى بحرارة وهي مبتسمة وأشارت إليها أن يدخلوا إلى الفيلا. وقفت أتطلع لملابسها السوداء وحديثها المفعم بالحماس مع ناريمان هانم. صدفة أخرى غامضة؟!

ما سر اجتماع كل هؤلاء الأرامل حول ناريمان؟

رن في أذني حديث دكتورة سلوى الصباحي وهي تتساءل:

- ألا هو مات إزاي؟

- بتقولك جاله دور برد على شوية ترجيع وإسهال، رقدوه في السرير، جابت له دكتور قالها شوية برد في المعدة، وهووووب السر الإلهي طلع.

لا أعلم لماذا، لكنني شعرت بفضول لمعرفة أسباب وفاة واصف الجوهرجي وزوج مدام مديحة البدينة. أخرجت مفكرتي الجديدة ودونت بعض النقاط، أريد أن أرتب أفكاري:

- وفيات متفرقة لأزواج زبائن ناريمان هانم.

- أعراض مرض غير مفهوم (إعياء – إسهال – قيء) يصيبهم، أعراض تسمم؟

- واصف الجوهرجي – زوج دكتورة نجوى – زوج مدام مديحة.

هناك شيء غامض في كل هذا... شيء يبدو مرعبًا.

ناريمان

الأسكندرية -1968..

في الصباح أعلن الحداد في المنزل على وفاة صلاح، وقمت بتبليغ أخته وأمه الشمطاء بأمر وفاته. جاءت أخته تبكي وتصرخ، وما إن رأت وجهي حتى اتهمتني بقتله صارخة، ولطمت خدي حتى سالت الدماء من أنفي. واتصلت بالشرطة قائلةً إنها تشك بأنني قتلت أخاها الذي تعلم أنني لطالما كرهته لأرث أمواله. وحين جاء رجال الشرطة ورجال المعمل الجنائي والطبيب، لم يجدوا أي شيء يريب في الجثة، لكنهم قاموا بالتحفظ عليها لحين عرض الجثة على الطب الشرعي.

مكثت في مكتب وكيل النيابة لمدة يومين رأفةً منه بحالي لحين انتهاء التحقيقات، وكان يسمح لرضا بإدخال الطعام والشراب مع العسكري.

وبعد يومين، خرج تقرير الطب الشرعي بأنّه لا يوجد أي شبه جنائي في الوفاة التي قد تبدو غامضة نوعًا ما، خصوصًا مع الإرهاق الذي أصابه والمرض غير المعروف الذي عانى منه في آخر أيامه. لكن كل الفحوصات والتحاليل أكدت أن جسده خالٍ من أي محاولات قتل متعمد. أفرجت عني النيابة العامة وخرجت شهادة الوفاة وتصريح الدفن بعد وفاته بثلاثة أيام.

وقفت فوق قبره أودعه مبتسمةً بدون دموع وسط ذهول الجميع ونظرات مقت أمه ودعوات أخته عليّ بالخراب. كتبت الصحف عن

وفاته الغامضة وعن اتهام أخته لي بقتله، لكن القصة لم تدم طويلًا وخمدت جذوتها بعد أيام قليلة وسط الأحداث السياسية وأحوال البلاد السيئة. توفي صلاح ونلت حريتي أو هكذا حسبت...

بعد مرور أسبوع من هذه الأحداث المتشابكة، جاء فرج السائق يطلب مقابلتي بعد توصيل ناهد إلى مدرستها. عقدت حاجبيّ بعدم فهم، ورضا تبلغني برغبته في مقابلتي وهي تتحاشى نظري في خوف، فسمحت لها بإدخاله إلى صالون القصر. لم يسبق له التعامل معي بصورة مباشرة، فدائمًا كانت معاملاته مع صلاح أو أحيانًا يطلب من رضا أن تتحدث إليّ لأتوسط له عند صلاح فيزيد راتبه. دخلت لبهو القصر فوجدته جالسًا هناك واضعًا ساقًا فوق الأخرى، ولم ينهض ليستقبلني بأدب كعادته بل تطلع إليّ بنوع من الجراءة. فعقدت حاجبيّ وجلست بهدوء، وقد أيقنت أن هناك أمرًا خطيرًا وراء تغير معاملته. رمقني بنظرة ساخرة، ومال للأمام قائلًا:

- أنا مش هطول عليكِ يا ناريمان هانم، أنا راجل دوغري... أنا مردتش أقول للست درية أخت صلاح باشا... بس أنا عارف كل حاجة.

رمقته بصمت، فاسترد قائلًا:

- ما هو أنا عدم اللامؤاخذة، سمعتكم يومها من البلكونة، أنا أصلي كل يومين تلاتة كده... أحب أطل عليكم وأشوف الباشا بيعمل الواجب معاكِ ولا مقصر، والصراحة سمعت كلام مش ولا بد ليلة موت الباشا... هو أنا صحيح مفهمتش انتِ عملتيها إزاي؟ بس عرفت أنكِ انتِ اللي سلكتي روح الراجل، ومتأخذنيش يعني الكلام دا مش

هيعجب درية هانم.

أنهى جملته وصمت، وهو ينظر لعينيّ ليرى واقع كلماته عليّ. تماسكت حتى لا أبدو ضعيفة أمامه، وبذلت جهدًا ليخرج صوتي واثقًا وأنا أقول له:

- وإيه بقى المطلوب يا فرج؟

- نتفق يا ست هانم، أنا مش عايز غير أننا نتفق والله، يعني هاعوز إيه يعني، دانا غلبان... شوية فلوس يأمنوا مستقبلي...

ومال برأسه للأمام قائلًا وهو يغمز بعينه:

- ونبقى مع بعض.

- نبقى مع بعض إزاي؟

ابتسم قائلًا:

- لا دي براحتك... عايزها رفق؟ موافق... عايزها جواز شرعي على سنة الله ورسوله؟ وماله، أنا خدام تراب رجليكِ يا ست الهوانم.

ونهض قائلًا:

- دوري الكلام في رأسك اللي توزن بلد دي وردي عليّ... بس بسرعة بدل ما أروح لدرية هانم.

وانصرف... انتهى وقت ادعاء القوة. دفنت وجهي في راحتي وانخرطت في بكاء حار، لا أعلم ماذا أفعل، لقد توقف عقلي عن التفكير تمامًا، وقد شعرت أنني لا أقوى على التنفس. اقتربت مني رضا التي سمعت المحادثة من وراء الباب، واحتضنتني بحرارة

قائلة:

- متخفيش يا ست ناريمان، متخافيش، طول عمره وسخ ودون، بس أنا معاكِ... أنا مش هسيبك.

ومسحت دموعي هامسةً وهي تطلع لعينيّ مباشرة:

- اللي جرى على صلاح باشا، يجري على فرج...

رضا

الأسكندرية – 1967..

لم أكن أعلم أن فرج سوف يراوض ناريمان هانم عن نفسها! فعندما أخبرني أنه متأكد أن الهانم قتلت الباشا بشكل ما، حيث إنه سمع بعضًا من المحادثة الأخيرة بينهما، لكنه كان منتشيًا بالحشيش فلم يفهم الكثير، وقال الكثير عن أنها فرصته الوحيدة التي يجب أن يحسن استغلالها لينال قطعة من الكعكة. ظننت أنه يتحدث عن حفنة من الجنيهات ليشتري بها المزيد من هذا "الهباب" الذي أكل عقله أكلًا. وأردت أن أحذر الهانم من مطامعه، لكنني لم أستطع لأنه انهال علي ضربًا عندما حاولت أن أثنيه عن قراره قائلةً أنني سوف أخبر الهانم بخطته. الست هانم عشرة عمري ولطالما أحسنت لنا، لكنه ناكر للجميل! والأدهى أنه -القذر- طلب منها أن يعاشرها وإلا سيفضح سرها أمام درية هانم أخت زوجها.

شعرت بالغضب يأكل قلبي، القذر يهجرني بالفراش لشهور طويلة ويشتهي غيري! بل والأدهى أنه ينتهز فرصة ضعف الولية الغلبانة لكي يجبرها على الموافقة! لم أعرف كيف جالت الفكرة في رأسي ولا كيف وجدتني أحتضن ناريمان هانم الباكية وأنا أخبرها أننا سوف نتعاون معًا للخلاص منه للأبد. هي سوف تتخلص من تهديداته وابتزازه للأبد، أما أنا فسوف أنتقم منه وأثأر لكرامتي. لكن فكرتي لم تلقِ أي قبول عند ناريمان هانم، بل وجدتها تقول باستنكار:

- انتِ اتجننتِ يا رضا؟

- دا الحل الوحيد يا ست هانم... نحط له من الزازة الخضرا اللي حطيتِ لصلاح باشا منها، ويا دار ما دخلك شر.

برقت عيناها الزرقاوان فقد أدهشها أنني أعلم بأمر السم الزعاف الذي صنعته من جذور نبات ست الحسن وقامت بتعبئته في تلك الزجاجة الخضراء.

- أنا مش غبية يا ست هانم، عيب، دانا تربيتك.

طال صمتها، فعدت ألح عليها قائلة:

- يا ست هانم، أنا ستر وغطى عليكي، وسرك هيبقى سري... خلينا نخلص منه ونكتم السر معاه.

فصاحت قائلة بعصبية وهي تدفعني بعيدًا عنها:

- تخلصي منه وترجعي انتِ بقى تطلبي مني فلوس عشان تداري عليا؟؟؟ اوعي يا رضا من طريقي... اوعي.

وتركَتني جالسة على الأرض أفكر، معذورة، بالطبع لا تثق بي بعد كل ما قاله هذا الحقير! لو كنت مكانها لما وثقت في ظهر كفي. لكنني كنت قد اتخذت قراري، أن فرج لا يستحق الحياة.

في الأيام التالية، استمر فرج في مضايقة الست هانم كلما قابلها وهي عائدة من الخارج أو وهي تعمل في الحديقة، فكان يتطاول عليها بالألفاظ النابية وباللمسات الوقحة أحيانًا، فكانت تهرب لداخل المنزل بذعر. أما أنا فكنت انتهز فرصة غيابها في محاولة إعداد التركيبة الجديدة من ذاكرتي، أذكر أنها استخدمت فيها كميات كبيرة

من جذور نبات ست الحسن مع بعض الزيوت الأخرى، ثم كانت تقوم بتصفية الخليط وتتركه لمدة 3 أيام.

لم أكن واثقة من جودة التركيبة، فبالرغم من إتقاني لجميع التركيبات الأخرى التي علمتني الهانم أن أعدها، لكن هذه هي التركيبة التي شاهدت إعدادها بدون المشاركة الفعلية. لكن لم يكن هناك متسع من الوقت لترف التجربة، الليلة سوف نتخلص من كل هذا القلق. انتظرته حتى عاد ليلًا منتشيًا كعادته وقدمَت له طبق البصارة المشبع بخمسة عشر قطرة من السم ورغيفين عيش. فجلس أمام الطبق قائلًا بأمتعاض:

- يا ولية كفاية بصارة، بقي بطني مششت، أمرنا لله... دشي لي فحل بصل وأعملي لي خمسينة شاي عشان أحبس.

قدمت له ما طلبه، التهم الأكل كالخرتيت واستلقى مكانه حتى تعالى شخيره. استيقظ بعد الفجر بدقائق صارخًا من الألم وهو يمسك ببطنه، ثم نهض كالغول وجذبني من شعري صارخًا:

- بطنننني... البصارة كان فيها إيه يا بنت الكلللب... البصارة كان فيها إيه؟

صرخت وأنا أحاول تخليص شعري من أنامله التي تطبق عليه بعنف:

- مكنش فيها حاجة يا سي فرج، سيب شعري، حرام عليك، مكنش فيها حاجة ورحمة أمي!

ودفعته بقوة فتركني مرغمًا وسقط أرضًا يتقيأ، فأطلقت ساقي

للريح وخرجت من غرفتنا في القبو عدوًا لغرفة نوم الست هانم التي كانت ترتدي روبها الساتان بعدما استيقظت على صوت عراكنا.

- الحقيني يا ست هانم... فرج مش عايز يموت... أنا حطيت له من السم مش عايز يموت وعمال يصرخ وهيفضح الدنيا.

- أوه مون ديو!! انتِ جبتِ الإزازة منين... دا أنا رميتها!

- عملت غيرها يا ست هانم... مش وقته، اتصرفي، أبوس إيديك، هيفضحني ويفضحك.

- الله يخربتك يا رضا، الله يخربتك! اتصرف، أعمل إيه، أنا اتصرف إزاي يعني؟

اقترب صوت فرج الصارخ بينما نحن مازلنا نولول لا نعلم ماذا نفعل، وفي لحظة وجدناه يقف أمامنا بعدما اقتحم الغرفة وهو يترنح ويمسك بمعدته قائلًا بصوته الجهوري:

- اتفقتوا عليا يا ولاد ...

جرت كل منّا في اتجاه خوفًا منه، فاختبأت أنا تحت الفراش الضخم، لكنه لحق بالهانم وجذبها من شعرها الحرير فأسقطها أرضًا تحت قدميه، وكال لها العديد من اللكمات، فسالت الدماء من أنفها.

- بتعصيها عليا يا مرا! بتخليها تسميني زي ما سميتِ جوزك الغلبان! أنا هفضحكم وأحطكم في الليمان.

لم أستطع أن أتركها، فخرجت من مخبئي وانقضضت عليه، لكنني كنت كالعصفورة التي تنقض على الدب، فسرعان ما جذبني من

قميصي ووضعني تحت قدميه بينما هربت الهانم. احتملت ركلاته في ظهري ورأسي، ثم فجأة وجدته يصرخ وهو يمسك رأسه التي شجت، ثم تهاوى فوقي كالبالون المثقوب. تطلعت للهانم التي وقفت فوقنا متسارعة الأنفاس وهي تحمل التمثال النحاسي الثقيل الذي تلوث بدماء فرج.

ليلى

الإسكندرية -2015..

تلاقت عيناي أنا وجدتي لوهلة ثم خفضت عينها وعادت تأخذ رشفة من حساءها قائلة:

- انتِ بيتهألك حاجات يا ليلى!

- لا يا جدتي أنا مش بيتهألي! أنا سمعتك بتتزعقي مع دادة رضا وبتقولي لها انتِ فضلتيه عليا وكلام كده مش مفهوم. مين ده اللي دادة رضا فضلته عليكش؟

- أنا مقولتش الكلام ده يا ليلى!

- أنا سمعت حضرتك!

- أكيد سمعتِ غلط.

- هو أصلًا الكلام ده مش منطقي يبقى لدادة رضا... هو كان فيه حد تاني موجود في البيت النهاردا؟

طرقت الطاولة بقبضتها بعصبية صارخة:

- بس بقى... حد مين! هو إحنا بيتنا في حد بيدخله؟ كل الزباين بيمشوا من بره بره، انتِ خلاص اتجننتِ!

ونهضت بعصبية بدون أن تنهي طعامها. نهضت أنا أيضًا وقد فقدت شهيتي وصعدت للطابق الثاني شاردة، لماذا تنكر شيئًا حدث! هل أسأل دادة رضا؟ لكن سؤالي سوف يسبب المزيد من الإزعاج لها،

لكنني لا أستطيع تجاهل الأمر كذلك. كنت أفكر في كل هذه الأمور حين مررت بجوار غرفة البيانو.

وقفت أتطلع لباب الغرفة بتردد، ثم مدت يدي وفتحت الباب ودخلت. لم أغلق الباب حتى يتسلل القليل من الإضاءة من الممر الخارجي لينير الغرفة المعتمة. هذه المرة اتجهت لمفتاح النور مباشرة، لا يعمل؟ يبدو أن المصابيح قد تلفت من قلة الاستخدام، فتحركت في الظلام بحرص وقد بدأت عيني تعتاد الظلام. أرى اللوحات التي تزين الجدران والطاولة وظلال البيانو العتيق والمزهرية فوقه، ياللعجب، ما زال عطر الزهور يفوح منها، مددت يدي أتحسسهم فوجدتهم كأنما قطفوا هذا الصباح فقط! يبدو أن دادة رضا تقوم بتنظيف الغرفة ووضع الزهور بدون علمنا إذن!

جلست على كرسي البيانو أتحسسه بيدي، وبدأت أعزف "أنا قلبي دليلي"، اللحن الألطف الذي طالما أحببت نعومته. حكت لي دادة رضا وأنا صغيرة أن أمي كانت تحب العزف على هذا البيانو كثيرًا وكانت دائمًا تعزف ألحان ليلى مراد فقد كانت تعشقها. حتى أنها صممت أن تسميني ليلى تيمنًا بها.

لا أعلم لما أصرت جدتي أن تتوقف دادة رضا عن الحديث عن أمي، لقد كانت عيني على أمي التي لم أرَها. اندمجت في العزف وأنا أتذكر حديث رضا المحبب عن أمي ولم ألحظ أن الإضاءة القادمة من الخارج تخفت رويدًا رويدًا وأن باب الغرفة ينغلق ببطء شديد.

حانت مني التفاتة للباب الذي أغلق تمامًا بعنف فجأة، وجدت نفسي في الظلام الدامس، نهضت مذعورة أتحسس الطريق بحذر

حتى لا أقع، وصلت للباب ومددت يدي لمقبض الباب حين قبضت على معصمي يدٌ ثلجية باردة. فتحت فمي لأصرخ لكنني وجدت صوتي لا يخرج كتلك الكوابيس التي يأبى صوتك فيها أن يعلو، لصقت ظهري للحائط وأنا أجذب ذراعي من تلك القبضة بينما أحاول جاهدة وفي الظلام أن أرى ملامح الشخص المتسلل. كان الأمر شديد الصعوبة لكنني استطعت أن أتبين هالة حالكة السواد، تفوق سواد الظلام بمراحل لم أتخيل وجودها. وهذه الهالة تتحرك ببطء شديد لتقرب ما يبدو أنه رأس هذا الشيء ليكون بنفس مستوى وجهي، تطلعت في الظلام لوجه الشيء الذي لا ملامح له، ولفحتني أنفاس باردة كأنما جاءت من القطب الجنوبي بينما تحدث الشيء بصوت مبحوح منخفض:

- امشي ورا ودنك... امشي ورا ودنك.

أغمضت عيني بقوة وأنا أتمتم آية الكرسي بصوت غير مسموع، وحين فتحت عيني ببطء كان باب الغرفة مفتوحًا والإضاءة القادمة من الخارج تغمر الغرفة الفارغة تمامًا.

إسماعيل

الإسكندرية – 1981

حين ذهبت لمحل واصف الجواهرجي، لم أكن أعلم عن ماذا أبحث تحديدًا، لكنني ذهبت بالرغم من كل شيء. تطلعت للمشغولات الذهبية البراقة وتطلعت للشاب الوسيم الذي وقف أمامي مبتسمًا ينتظر أن أطلب منه أن يزن لي شيئًا من هذه الأشياء. فأشرت بأصبعي على قلادة تنتهي بفراشة جميلة للغاية، أخرجها الشاب في أدب ووزنها لي قائلًا:

- اختيارك رقيق جدًا يا فندم، ووزنها كمان خفيف مش هيكلفك كتير.

تطلعت لملامحه وقارنتها بملامح الرجل الذي تحتل صورته العملاقة الجدار الخلفي للمحل بشريطة حداد سوداء، فعرفت من تشابه الملامح أنه ابن واصف. تطلعت للقلادة وهو يضعها لي في علبة حمراء قطيفة وقلت له:

- تعبتك جدًا، والبقية في حياتك في المقدس واصف.

تبدلت ملامح الشاب وظهر عليه الحزن الشديد قائلًا:

- حياتك الباقية.

- كان راجل طيب جدًا الله يرحمه.

- ربنا يكرم أصلك، هو حضرتك كنت تعرفه؟

- المدام كانت بتتعامل معاه كتير وكنت بسمع عن معاملاته يعني.

تبادلنا الصمت ثم عدت أسأله:

- هو كان عيان؟

- أبدًا والله صحته كانت زي البوم، جاله دور برد في المعدة وإسهال متواصل، مقعدش أسبوعين بعدها ومات، كان عند مراته الجديدة القارحة... تخيل حضرتك... محاولتش حتى تجيب له حكيم!

صمت وأنا أتأمله بنظرة خاوية، ثم أدركت أن صمتي طال أكثر من اللازم وصار مريبًا فهززت رأسي بتحية ودفعت للشاب ثمن القلادة وخرجت من المحل شاردًا.

أخرجت مفكرتي وأنا أتطلع للنقاط السابقة التي دونتها وبدأت أرتب النقاط الجديدة:

- واصف الجواهرجي توفي بنفس الأعراض.

- الشك بالطبع يتمحور حول زوجته الجديدة (زبونة ناريمان هانم).

الأمر له علاقة بعنف أسري كما ذكرت ناهد. لقد تأكدت شكوكي. إن معظم زبونات ناريمان هانم يتوفى أزواجهن بمرض غير معروف، ومن أعراضه الإجهاد الشديد ثم يليه الإسهال ثم الوفاة في خلال أسبوعين. وليست جميع الزبونات، فقد رأيت زبونات أخريات لا يرتدين السواد ولا يترددن عليها سوى مرة واحدة بالكثير. تنهدت وعدت أدون في مفكرتي:

- الأمر دائمًا مرتبط بوجود خيانات زوجية أو عنف أسري. لا شك أن هذا ما حدث أيضًا لزوج مديحة تلك.

تخيل معي... سيدة تعاني من سوء معاملة زوج خائن متعدد العلاقات وتعلم أنه يريد أن يطردها من منزلها ليتزوج فيه، أليس من الأفضل لها أن يموت الزوج؟

ماذا عن دكتورة نجوى وزوجها الذي كان يقهرها كما قالت زميلاتها؟ أليس من مصلحتها أن تنتهي حياته وتتخلص من ظلمه لها؟

السؤال هنا... ما الذي تقدمه ناريمان هانم لهؤلاء السيدات ليقتلن به أزواجهن؟ ما هو الشيء الذي تخفيه وراء ستار مستحضرات التجميل الطبيعية ودهانات البشرة؟

أعتقد أنني بحاجة لزيارة سرية لمعمل دكتورة ناريمان.

ناريمان

الإسكندرية – 1967..

أنا لست بقاتلة! لقد كان وفاة صلاح شرًا لا بد منه، أما وفاة فرج فهي بالطبع لم تكن في الحسبان!

رضا الحمقاء أردت أن تنتقم منه فوضعت له سم البلادونا في طعامه وهي تظن أنها بهذا التصرف غير المحسوب سوف تخلصني من تهديداته وابتزازه، غير عالمة - الحمقاء - أن استخدام هذا السم له قواعد خاصة. إن البيلادونا نبات شديد السمية ويجب التعامل معه بحذر شديد، ولقد قمت بخلطه بالكثير من الزيوت والنباتات الأخرى حتى أخفف من فاعليته وأصل للنتيجة المطلوبة.

سم زعاف لا طعم له ولا لون ولا يترك أي أثر في الجسم. والأهم أنه لا يقتل الهدف في الحال... بل يقتل في مدة ما بين أسبوعين لثلاثة أسابيع حتى لا تثير الوفاة أي شكوك. في البداية نستخدم 5 نقاط، ونترك الجسم يحاول جاهدًا محاربته، وقبل أن ينجح الجسد في التغلب على أثر البلادونا نعالجه بجرعة جديدة من 8 نقاط ثم جرعة أخرى. التدرج هو السر.

أما ما فعلته تلك الحمقاء أنها كثفت السم في جرعة واحدة مما تسبب في الآلام الشديدة في أمعائه التي كانت تتآكل ببطء بفعل البلادونا. لكن الآلام لم تكن كافية لقتله للأسف بل حولته لثور هائج وقد أدرك ما فعلته به رضا فانطلق يضرب يمينًا ويسارًا، يدمر كل ما تطوله ذراعه صارخًا بغضب وهدفه أن يفتك بنا قبل أن يموت من

مبدأ (عليّ وعليّ أعدائي).

كان قويًا للغاية والغضب أكسبه قوة أسطورية فكان يحملنا ويلقينا أرضًا بكل سهولة كأنه يحمل دجاجات. وكان صراخه وصراخ رضا كفيلًا بأن يوقظ الموتى، فما بالكم بالجيران الذين لم أتخلص من نظراتهم الفضولية بعد منذ اتهامات درية لي بقتل أخيها. كان يجب أن أنهي كل هذا العبث... وحالًا.

انشغل هو بضرب رضا الضئيلة فأشبعها ركلًا ولطمًا بينما بحثت أنا سريعًا عن أي شيء ثقيل حولي فوجدت تمثال زيوس النحاسي الثقيل... المنحوتة الأثرية التي لطالما نالت إعجاب أصدقائي والتي تصلح الآن كأداة للقتل. حملت التمثال الثقيل بكلتا يديّ وهويت به على رأسه ليُطلق خوارًا رهيبًا ثم يسقط ميتًا فوق رضا التي أخرستها الصدمة فدفعته بعيدًا عن جسدها وزحفت بعيدًا عن بقعة الدماء التي أخذت تتسع بسرعة. ألقيت بالتمثال أرضًا وجلست في ركن الحجرة ألتقط أنفاسي وقد خارت قواي تمامًا.

اقتربت مني رضا وجلسنا متجاورتين نتطلع للجثة شاخصة البصر عاجزتين عن النطق مما يقارب الثلاث ساعات حتى أدركنا الصباح. كانت رضا هي من تحدثت أولًا بصوتٍ راجف باكٍ:

- هنعمل إيه يا ست ناريمان؟ كان هيموتنا ابن الكلب!

بلعت ريقي بصوت مسموع وقلت لها:

- مش قادرة أفكر يا رضا... مش عارفة أفكر.

عدنا لصمتنا مرة أخرى ثم قالت وقد بدأت تتماسك قليلًا:

- عيلة الشمشرجي مسافرين.

ففهمت أنها تقصد أن كل هذه الضوضاء لم يسمعها الجيران، وهي ملاحظة ذكية منها لم ألحظها. هززت رأسي موافقة فقالت:

- يبقى ندفنه في الجنينة، ولا من شاف ولا من دري.

- وأهله يا ناصحة؟

- أهل إيه يا ست ناريمان، هو اللي زي ده له أهل! مفيش غير أمه ولية غلبانة في الصعيد الجواني بيبعت لها جنية كل أول شهر، ومرحش يزورها بقاله 8 سنين، إحنا لو فضلنا نبعتلها الشهرية ولا هتحس أنه حصله حاجة!

- هممممم ونقول للناس إني طردته عشان كان بيسرق مثلًا؟

صمتنا قليلًا ونحن نحاول هضم الفكرة معًا ثم عدت أسألها:

- طب وأنا لو طردته، انتِ مش المفروض هتمشي مع جوزك؟ الناس هتقول إيه أنك لسه قاعدة عندي؟

- أيوة صح.

هرشت رأسها ثم قالت بانتصار:

- نقول إنك صممتي أنه يطلقني قبل ما يمشي عشان مبقاش على ذمة حرامي، وعشان سيادتك متستغنيش عني طبعًا.

استسغت الفكرة نوعًا ما. إن اختفاء فرج وأمثاله من حثالة المجتمع لهو أمر غير مؤثر بالمرة، خاصة مع شخص مثله منبوذ من الجميع ولا أصدقاء له بعدما سرق جميع معارفه وتنكر له أقاربه. لا

أعرف كيف نهضنا من مجلسنا وخرجت رضا في جولة حول القصر لتتأمل المكان المجاور وتتأكد أنه لا أحد كان بالجوار قد يكون سمع الصراخ وأصوات العراك، ثم عادت إليّ وساعدتني في لف جسده بداخل أحد الأغطية وقمنا بجره للحديقة جرًّا، لحسن الحظ أن غرفة نومي في الطابق الأرضي.

قامت رضا بحفر حفرة لا بأس بها أبدًا ودفعنا بجسده ليسقط بداخلها، وقفنا فوق الحفرة نتطلع له ثم أهلنا التراب على جسده وعلى سرنا الأبدي.

رضا

الإسكندرية – 1970..

ثلاث أعوام من الرخاء وراحة البال. لا رجال... لا إهانة.

مات صلاح باشا الذي كان يحيل حياة الهانم لجحيم... ولحقه فرج السجان الذي كان يحبسني بداخل القصر ويمنعني أن أخطو خطوة واحدة خارجه.

توطدت علاقتي بالهانم أكثر مما سبق بعدما تشاركنا الأسرار، فصرنا شريكتين لا تفترقان، عالحلوة والمرة معًا. نعمل في معملنا على تركيب الزيوت والدهانات التي تشتريها سيدات المجتمع الراقي نهارًا، ونتعاون في العناية بالمنزل وتربية الهانم الصغيرة الجميلة ليلًا. لم تتزوج ناريمان هانم مجددًا رغم تردد مئات الخطاب على منزلنا طالبين القرب، وكذلك لم أفعل أنا. لقد تعاهدنا أنا وهي على عدم إدخال رجال آخرين للمنزل بعد أن تعلمنا الدرس جيدًا، لا شيء يأتي من وراء الرجال سوى الخراب.

وصممت ناريمان هانم على نقل ناهد الصغيرة إلى مدرسة داخلية عندما بلغت الفتاة وأصبحت مطمع جميع شباب كفر عبدة بعدما خرطتها مخرطة البنات وصارت شديدة الجمال مثل أمها. فأرادت الهانم أن تبعدها تمامًا عن الاختلاط المبكر بالرجال، وصارت تزورنا فقط في نهاية كل أسبوع. أما تجارتنا فقد انتعشت بشدة، ربما لم نتوسع كثيرًا لكن صار لنا زبونات مستديمات.

بدأت أحاول إقناع الهانم أن النساء بحاجة لمثل هذا الاختراع

العبقري الذي أنقذنا. زيت ست الحسن...

لا أذكر عدد الزبونات الذين كانوا يأتون طالبين من الهانم مستحضرات تجميل تغطي آثار ضرب أزواجهن، كنا نقف عاجزين عن مساعدتهم وكل واحدة منهن لديها قصة تدمع العين. إن هؤلاء النسوة بحاجة لمساعدة أقوى وأهم من بضع برطمانات من الزيوت أو الألوان التي تخبئ معاناتهن. إنهن بحاجة للخلاص وراحة البال.

بعد عام كامل من محاولات الإقناع التي كانت تبوء أكثرها بالفشل، اقتنعت مدام ناريمان وبدأنا تصنيع كميات صغيرة من زيت ست الحسن ولكننا كنا ما زلنا نشعر بالتردد، كما أننا لم نعرف كيف نمهد لأحدهن أننا نملك الخلاص من مشاكلها الزوجية في هذه القنينة الخضراء. وما أدراكِ أنها لن تخبر الشرطة أننا نروج لسم فتاك؟

ما أريد قوله أننا كنا مستعدين تمام الاستعداد، كان ينقصنا فقط الشخص المناسب. وكانت هذه الشخص فريال هانم.

فريال هي ابنة عم ناريمان هانم وصديقتها منذ الطفولة، سيدة بشوشة ومتواضعة، لم يكن قصرها يبتعد كثيرًا عن قصر الهانم، لذلك كانت كثيرة التردد على قصرنا لتسهر معنا وتتسامر وأحيانًا تشتري بعضًا من منتجات التجميل التي نبيعها، لكنها لم تكن تدفع أبدًا، تتحجج بنسيان حافظتها في بيتها كل مرة، وناريمان هانم كانت تتقبل الحجج بابتسامة بسيطة قائلة:

- خليها علينا المرة دي يا حبيبتي.

ثم كانت تعود لتفسر لي قائلة:

- معلش يا رضا، جوزها بتاع برتيتا ومضيع فلوسها كلها على طربيزات القمار، مسكينة!

ثم لاحظنا ذبول فريال وحزنها المستديم في الآونة الأخيرة، فسألتها الهانم كثيرًا لكنها كانت تكتفي بابتسامة باهتة وتصمت فلم يكن من طبعها الثرثرة عن حياتها الشخصية.

وفي ليلة من ليالي ديسمبر الممطرة، بينما تختبئ كل منا تحت أطنان من الأغطية متلذذة بدفء الفراش، سمعنا صوت طرقات مستغيثة على باب القصر، نهضنا مذعورات، إنها الواحدة بعد منتصف الليل! من القادم في مثل هذا الوقت؟

فتحنا الباب لنجد فريال هانم بثياب النوم المكشوفة حافية القدمين ترتجف وتبكي ثم سقطت مغشيًا عليها، غلبنا دهشتنا وتعاوننا على حملها لغرفة نوم الهانم وبدلنا ملابسها المبتلة بفعل الأمطار. لم تنم ناريمان هانم ليلتها وسهرت بجوارها تسمعها وهي تهذي من أثر ارتفاع حرارتها، بالطبع... يبدو أن المسكينة أصيبت بدور برد شديد بعدما مشيت من بيتها لبيتنا شبه عارية في هذا الطقس الممطر وأخذنا نتساءل، ما الكارثة التي قد تخرجها من منزلها بهذه الهيئة المشينة!

في الصباح عندما تحسنت فريال قليلًا وبدأت تتحدث باكية:

- بقالي سنين مستحملة قرف وضرب وإهانة.. كل فلوسي بياخدها يلعب بيها.. العربية بتاعتي اللي بابي كان جايبها لي.. خسرها في مغامرة طائشة من مغامراته في الصالات.. ومع ذلك سكت ومتكلمنيش وقلت بكرة يعقل.. لحد ما إمبارح، حسيت إنه مش

جنبي في السرير.. قمت أدور عليه في البيت كله.. لقيته.. لقيته...

ثم انهارت باكية وهي تقول:

- في أوضة الخدامة يا ناريمان.. بيخونني مع الخدامة.. ولما صوتي علا عليه، رماني برة البيت بقميص النوم.. خلاني أمشي في الشارع عريانة!

ودفنت رأسها في أحضان ناريمان هانم قائلة بانهيار:

- أنا اتبهدلت واتهانت.

ربطت على ظهرها ناريمان وهي تتبادل معي نظرات ذات معنى، فأدركت ما تعنيه ونهضت لأحضر القنينة الخضراء لزيت ست الحسن.

ليلى

الإسكندرية – 2015..

خرجت من الغرفة زاحفة تقريبًا لا أستطيع النهوض، وألتصقت بالحائط المقابل لباب الغرفة وألتقطت أنفاسي بصعوبة.

ما هذا الذي حدث بالداخل الآن؟

هذه الغرفة اللعينة مجددًا!

مددت ساقي وركلت الباب لينفتح على مصرعيه وتنكشف أمامي الحجرة البريئة الفارغة. أمسكت هاتفي الجوال وأشعلت فلاش الكاميرا وأنرت الغرفة وأنا مازلت جالسة على الأرض.

لا أحد... لا أحد هناك، حتى المزهرية فوق البيانو فارغة... لا ورود هناك! هل كنت أتخيل كل هذا؟

نظرت لمعصمي. لا... أنا لم أكن أتخيل كل هذا، إن آثار القبضة التي اعتصرت معصمي لا تزال هناك.

شعرت برجفة باردة تسري في جسدي ونهضت كالملسوعه لأبتعد عن المكان بظهري، فإني لا أجرؤ أن أعطي هذه الغرفة ظهري.

وحين ابتعدت قليلًا، أطلقت ساقي للريح ودلفت لغرفتي وأغلقت الباب من خلفي باكية. أمضيت يومي أرتجف في الفراش، وحين جاء المساء، جاءت دادة رضا بطعام العشاء وقالت شيئًا لم أسمعه جيدًا وهي تبدو غاضبة.

تحسست أذني... السماعة ليست هناك!

نهضت أبحث عنها في حقيبتي وأرضية الغرفة بينما دادة رضا تتمتم بصوت عالٍ حتى أسمعها:

- بسم الله الرحمن الرحيم، مالك يا بنتي؟ انت ملبوسة ولا إيه؟

لكنني لم أنتظر، وخرجت من الغرفة مسرعة أبحث أرضًا في الممر بين غرفتي وغرفة البيانو حتى وصلت أمام باب غرفة البيانو وتوقفت، ترددت لحظة ثم حسمت أمري وفتحت الباب بتردد.

النور القادم من الممر ينير الغرفة، خطوت خطوة واحدة للداخل فوجدت السماعة على الأرض بجوار الباب... يبدو أنها سقطت من أذني بالداخل. التقطتها ووضعته في أذني... أجفلت حين سمعت صوت دادة رضا التي جاءت خلفي وهي تقول بغضب:

- إنتِ إيه اللي بيدخلك الأوضة المنيلة دي؟

- هي الأوضة دي مالها؟

- ملهاش!! يلا بينا نخرج من هنا.

- ما تقوليلي فيها إيه؟

- يا مراااااري! هو انتِ لازم تقاوحي وخلاص؟ بقولك يلا نمشي من هنا.

- مش هتحرك غير لما تقوليلي في إيه.

ثم صمت قليلًا وقلت لها بهدوء:

- في حاجة غريبة بتحصل فيها صح؟

صاحت بعصبية:

- أيوة... الأوضة مسكونة... البيت كله مسكون يا ليلى!

إسماعيل

الإسكندرية – 1981

تذهب ناريمان هانم كل يوم ثلاثاء إلى نادي سبورتينج لتسبح وتتناول وجبة الإفطار مع فريال هانم صديقتها.

إذن هو يوم الثلاثاء.. انتظرتها حتى تحركت بسيارتها وتأكدت من انشغال رضا بإعداد وجبة الغداء في المطبخ بينما ناهد تغط في سبات عميق. إنها فرصتي إذن، تسللت إلى المعمل الذي يقع في غرفة صغيرة بجوار القبو.

أشعلت كشافي الصغير فأنا لا أريد أن أستخدم إضاءة الغرفة حتى لا تلاحظ رضا بأي شكل من الأشكال. انعكس ضوء كشافي على القوارير الملونة، بعضها فارغ وبعضها ممتلئ وجاهز للبيع. لم أكن أعلم الفرق بين القوارير لكنني لاحظت وجود ثلاثة أنواع من القوارير فأخذت واحدة من كل نوع، ولفت نظري الاسم المكتوب على القنينة الخضراء (زيت ست الحسن)،، وضعت الثلاثة قوارير في جعبتي.

حان موعد الخروج من هذا المكان الخانق، خرجت مسرعًا وأنا ألقي نظرة أخيرة على المكان، كادت قدمي أن تنزلق وأنا أخرج من الباب فقط لأصطدم بناريمان هانم ونسقط سويًا!

كدت أموت خجلًا، نهضت مسرعًا وساعدتها على النهوض وأنا أكرر أسفي واعتذاراتي بينما أفكر في سري عن السبب الذي سأبرر به تواجدي في معاملها الآن. قالت لي بنظرات شك:

- أنت كنت بتعمل إيه هنا؟

تلعثمت وأنا أحك أنفي:

- أنا... أنا كنت عايز الشكوش عشان في مسمار كده... طالع من الدولاب عمال ينتش الهدوم.

- والشاكوش في معملي؟

- ما أنا ملقتيش في الجراج قلت يمكن ألقى عند حضرتك.

ابتسمت في صمت ثم قالت بمرح غير معتاد:

- طب تعالى بقى ساعدني... أنا أصلي افتكرت إن النهاردا فيه معرض في النادي لبيع المنتجات المحلية قلت لما أرجع آخد شوية من الكريمات وأعرضهم... تعالى شيل معايا.

دخلت بتوتر ووقفت أنتظر طلباتها. قالت وهي تشير إلى القنينات الخضراء بالذات:

- عارف دي إيه يا دكتور؟

- الصراحة لا.

- دي يا سيدي قطرة بتوسع حدقة العين وبتدي مظهر جذاب للستات، أكتر منتج بيتباع عندي.

صمت وأنا أشعر بالعرق يغمر جسدي، أنا لا أفهم لماذا تشرح لي مكونات هذه القطرة دون عن باقي منتجاتها، هل تشك أنني أبحث في الأمر؟

ساعدتها في حمل صندوق مليء بالزجاجات إلى سيارتها. وشكرتني وهي تبتسم وانصرفت. تنفست الصعداء واتجهت لمعمل الكلية... أريد أن أحلل محتوى الزجاجة.

استغرق الأمر ما يقرب من الساعتين حتى أصل للنتيجة النهائية. حسنًا.. إن حماتي المصون تقوم بتركيب قطرة تحتوي على سم زعاف مستخلص من نبات البيلادونا التي تقوم بزراعته بالحديقة وسط الورود البريئة. عدت أدون كل هذا في مفكراتي بيد مرتجفة وعقل شارد. لم أكن أعلم أنني سوف أوظب على التدوين حين اشتريت هذه المفكرة، لكن كل هذه الأحداث تزدحم في رأسي وأشعر أن عقلي سوف ينفجر إذا لم أقم بترتيب أفكاري بالكتابة. فصرت أكتب كل شيء بالتفاصيل.

عدت إلى المنزل وجلست في الحديقة أمام نبات البيلادونا شاردًا. تذكرت كيف قالت لي ناهد يومًا ما في ساعة صفا إن أمها غالبًا قتلت أباها. اندهشت وقتها من الأريحية التي تتحدث بها عن القصة، لكنها في الواقع لم تكن واثقة... مجرد شكوك. وحكت لي وقتها كيف اعتاد أبوها أن يضرب أمها بدون مراعاة لوجود ناهد، وكيف كان رجلًا متعجرفًا قاسي القلب يكرهه الجميع، حتى ناهد لم تحبه مطلقًا.

وعندما توفي إثر مرض غير معروف، قامت عمتها باتهام أمها بقتله، لكن التحريات لم تسفر عن أي دليل لإدانة أمها، فُغلق ملف القضية وانتهت القصة عند ذلك.

- طب ما دا مش معناه إنها قتلته؟ دا مجرد اتهام.

- أيوة مانا قلت لك، أنا مش متأكدة، مجرد قصة سمعتها وأنا طفلة.

- طب ولو طلعت كانت فعلًا قتلته، هتقدري تسامحيها؟ تنهدت وقالت بعد تفكير:

- أنا عارفة إن الوجع عمره ما كان مبررًا أن نغير فطرتنا الطيبة ونقتل أو نؤذي، بس أنا برضه مش في مكانها، مقدرش أصدر حكم عليها. أحيانًا الستات من كتر الوجع بيقرروا ينتقموا... وكل ما الانتقام بيتأخر، الضربة بتيجي شديدة.

زاد شرودي وأنا أتأمل الثمار التي تشبه الباذنجان تدلي من النبات ببراءة وسط الأوراق الخضراء الدقيقة. فتحت الكتاب الضخم عن النباتات السامة والذي قمت باستعارته من مكتبة الكلية، بحثت في الفهرس كثيرًا حتى وجدت ضالتي وفتحت الصفحة على صورة لنبات أخضر متشعب الأوراق تدلي منه ثمار سوداء تشبه الباذنجان. نقلت بصري بين الصورة والنبات الذي يقع على بعد خطوات من مجلسي هذا.

إنه هو بالتأكيد!

لمن لا يعرف حقيقة هذا النبات، فقد ينخدع في جمال مظهره وثماره التي تبدو شهية، لكنه في الواقع ليس بالبراءة التي يبدو عليها. قرأت ما كتب تحت صورته بصوت مسموع:

- إن البيلادونا هو واحد من أكثر النباتات السامة الموجودة على وجه الأرض، وجذره هذا النبات بصفة عامة هو الجزء الأكثر سمية،

وإن كان هذا يختلف من نوع إلى آخر. إن ابتلاع ورقة واحدة من النبات يمكن أن تكون قاتلة لشخص بالغ. المواد الفعالة في البيلادونا، الأتروبين، هيوسين (سكوبولامين)، والهيوسيامين، لها خصائص مضادة للكولين... أعراض التسمم في البيلادونا تشمل اتساع حدقة العين، عدم وضوح الرؤية، عدم انتظام دقات القلب، فقدان التوازن، الإرهاق الشديد، الصداع، الطفح الجلدي، الاحمرار، جفاف الفم والحلق الشديد، فقدان القدرة على الكلام بسهولة، الإسهال الشديد، الارتباك، الهلوسة، والتشنجات.

كنت أعلم بعض هذه الأشياء لكنني كنت بحاجة إلى تحديث معلوماتي. أكملت القراءة بعيني حتى وصلت إلى نقطة هامة:

- الاستخدامات: إن لفظ "البيلادونا" يأتي من اللغة الإيطالية، وتعني "سيدة جميلة"، والتي نشأت إما من استخداماته كمستحضرات تجميل للوجه، أو ربما من جراء استخدامه لزيادة حجم حدقة العين للنساء. وقد استخدمت قلويدات الأتروبا بيلادونا كنوع من أنواع السموم حيث استخدمها البشر في وقت مبكر لصناعة السهام المسمومة من النبات. وفي روما القديمة، كان يستخدم السم من قبل أغريبينا الصغرى، زوجة الإمبراطور كلوديوس بناءً على مشورة من لوكستا، وهي سيدة متخصصة في السموم، التي يُشاع أنها استخدمته لقتل زوجها الإمبراطور أوغسطس.

الآن تأكدت من الأمر!

إذن هذه هي أداة قتل وُصفها الجوهرجي والآخرون، وربما أداة

قتل صلاح زوج ناريمان هانم أيضًا. إنها تقوم باستخلاص السم من الجذور وبيعه على أنه قطرات تجميلية للنساء، لكن هذا ليس سوى ستار لسم فتاك تقتل به النساء أزواجهن الأوغاد بالتسميم البطيء ويتظاهرن بالحزن بعدها حتى تبعد الشكوك عنها. مجرد زجاجة مستحضر تجميل بريء لا يمكن لأحدهم أن يشك بمحتواها. كما أن لا أحد سوف يشك في هؤلاء النسوة الراقيات، وخصوصًا أن أزواجهن هم من كانوا يظلمونهن ويضربونهن في أغلب الأحيان.

الكل قد يرى وقت الوفاة أن الخلاص جاء بصورة ربانية لا دخل للنساء بها، بينما هن حفنة من القتلة! يا إلهي! تُرى كم رجلًا ساهمت ناريمان هانم في قتله بهذا السم!

والأسوأ أنني وزوجتي نعيش تحت سقف واحد مع هذه القاتلة.

ناريمان

الإسكندرية -1977

الكثير ...

تخلصنا من الكثير من الرجال في الأعوام التالية. لم أكن أعلم أن وجود البلادونا سيكون حبل النجاة لكل هؤلاء النسوة، فهذه يخونها زوجها ويطردها من منزلها، والأخرى يستولي على أموالها، وتلك السيدة الوقورة يهددها بالتشهير بسمعتها ظلمًا، أما الأخيرة فيجبرها على مجالسة مديره ومعاشرته إذا لزم الأمر لينال ترقية في العمل.

أشباه رجال لم أندم لحظة على مساعدة زوجاتهم على التخلص من طغيانهم. لكنني كذلك كنت انتقائية من الدرجة الأولى، فلم أكن أعرض مساعدة البلادونا على جميع السيدات المقهورات، لأن سلامي أنا ورضا شريكتي العزيزة أهم من جميع هؤلاء بالتأكيد. إن قرار اختيار السعيدة الحظ التي سوف نقدم لها البلادونا كان يأخذ منا - أنا ورضا - تفكيرًا عميقًا ودراسة مكثفة حول حالة هذه السيدة ومدى ثباتها الانفعالي. فأنا لن أختار سيدة ثرثارة لا تقدر حجم خطورة الأمر وتتكلم هنا وهناك عن سرنا الخاص والقسم الذي نقسمه.

نعم... هناك قسم بالتأكيد، فبعد نجاح بعضهن في الاختبار ووقوع الاختيار عليهن، نطلب منهن القسم بعدم البوح بالسر مهما كانت الضغوطات. فليذهب سرك معك إلى القبر عزيزتي، وإذا حدث واكتشف أحدهم أمرك، لا داعي لإخبارك أننا سننكر تمامًا معرفتنا

باستخدامك للبلادونا في قتل زوجك، أننا سيدات شريفات نقدم مستحضر تجميل بريئًا من أفكارك الشيطانية.

فالبلادونا سلاح ذو حدين وأنت وحدك أسأتِ استخدامه. لكن لم يحدث على مدار 6 سنوات أن دارت أي شبهات حول إحدى النساء التي رشحنا لهن البلادونا، وذلك لأنني كنت أدربهن جيدًا كيف يتصرفن على مدار شهر كامل خلال استخدامه على أزواجهن.

إن السر يكمن في التدرج...

هذا سم قوي، ويجب التعامل معه بمنتهى الحرص ليبدو الأمر طبيعيًا. كما يجب عليك أن تظهر الكثير من الذعر عند ظهور الأعراض الأولى على زوجك وأن تذهبي لتحضري له الطبيب بلهفة. افتعال الهستيريا يساعد كثيرًا في تقوية موقفكِ أمام الجميع وإبعاد جميع الشبهات عنك.

وما أن تطمئني لتمكن السم من جسده وبعد شكوك الجميع عنك، عاجليه بجرعة جديدة من البلادونا ثم جرعة أخيرة في الأسبوع الثالث.

جرعة أخيرة لن ينجو منها. ثم يأتي دور البكاء والانهيار التي يجب أن تتقنيها في هذه المرحلة عزيزتي، ولا تنسي أرجوك طلب تشريح زوجك وذكر أن لديه كثير من الأعداء الذين قد يرغبون في وضع السم في طعامه والخلاص منه. وهنا أحب أن أطمن قلبك، أن البلادونا سم لا يترك أي أثر في الجسد، فخطوة التشريح إذا تمت لن تضرك نهائيًا بل ستكون دعمًا لموقفك.

وهذا بالطبع إذا وافق أهل زوجك على التشريح، فمعظم المصريين لا يحبذون أن يقطع جسد ذويهم لأشلاء حتى وإن كان هذا بهدف الإيقاع بقاتل ابنهم وكأن الشاة يضرها سلخها بعد ذبحها. أوصيكِ بالالتزام بالحداد وافتعال الحزن لمدة لا تقل عن الأربعة أشهر. وهنا أكون قد أخذتك إلى بر الأمان.

وأحذركِ سيدتي، استخدام البلادونا مقتصر على الأزواج المستبدين فقط، نحن لا نتحمل مسؤولية استخدامه مع آخرين.

أشعر بالرضا التام عن ما أقدمه للنساء.

رضا

الإسكندرية – 1978..

أعوام عديدة من الرخاء والسعادة. نقوم بواجبنا تجاه النساء المقهورات على أكمل وجه. أشعر أنني فدائية مثل الفدائيين الذين كان أبي رحمة الله عليه يتابع أخبارهم ويعد كم جندي إنجليزي قتلوا هذا الشهر. أنا أيضًا صرت أسجل أسماء الرجال الذين خلصنا النساء من شرورهم على جدار غرفتي بكل فخر.

95 رجلًا بالتمام والكمال. اقتربنا من المئة رجل، ربما لا تعلم ناريمان هانم العدد لكنني أذكرهم واحدًا واحدًا، واسمًا اسمًا. وراء كل اسم منهم امرأة ذات قصة يشيب لهولها الولدان، جميعهم يستحقون المكوث في جهنم خالدين فيها. جميعهم نسخ أخرى من صلاح باشا وفرج الدنيء. أما ما زاد فرحتنا آخر عامين هو عودة ناهد الصغيرة لتعيش معنا بعدما أتمت دراستها الثانوية ودخلت كلية الصيدلة رغما عن أنفها مثلما أرادت ناريمان هانم لها.

الفتاة أليفة كالقطة الصغيرة لا تعترض مطلقًا على أوامر أمها حتى الصعب منها. فناريمان هانم تخشى عليها بطريقة مرعبة، أنها لا تريد لها أن تكرر قصتنا الحزينة فتحب أحدهم ويؤذيها ويكسر قلبها البريء، لذلك كانت تحاول أن تؤجل احتكاكها بالرجال قدر المستطاع.

حتى ظهر إسماعيل...

بدأ الأمر عندما جاء حسني السائق الجديد ليحكي لناريمان هانم

عن ناهد. وكانت ناريمان هانم قد عينته ليقل ناهد إلى الجامعة وينتظرها حتى تنتهي من محاضرتها ولا مانع من مراقبتها ونقل أخبارها لها أيضًا بدون أن تشعر الفتاة. وذلك اليوم جاء للهانم وهو متوتر وحكى لها أن ناهد كانت تقف مع أحد المعيدين حين جاء بعض المخبرين ليقبضوا عليه، فيما يبدو أنهم من البوليس السياسي.

غلي الدم في عروق الهانم وكادت أن تقتل ناهد ثم قررت أنها لن تعود للجامعة مرة أخرى. سوف تدرس بالبيت ثم تذهب لحضور الامتحانات فقط. حاولت ناهد أن تتوسل لها وأن تثنيها عن قرارها، قائلة أنه معيد يدرس لها مادة علم العقاقير وكان يشرح لها بعض النقاط في المادة، لكن الهانم كانت قد تحولت لأنثى نمر متوحشة، فكان من المستحيل مناقشتها في قراراتها. استسلمت ناهد المسكينة وانزوت في غرفتها تبكي.

أشفقت على حالها وصرت أرجو الهانم ليل نهار أن تعود في قرارها، فبدأت الهانم تلين وتستجيب للحديث بعد أسبوعين.

- ماشي يا رضا، كفاية زن.. هرجعها الكلية خلاص.

قلت لها ضاحكة:

- معلووووم يا هانم... الزن على ودان أمر من السحر.

ورحت أزف الخبر لناهد فقبلت رأسي بسرور. لكننا لم نكن نعلم أنها عندما عادت للجامعة كانت قد عادت للخطر من جديد وأنه – الخسيس – قد بدأ ينسج شباكه حولها ويلعب بقلبها ويقنعها أنهم يجب أن يتزوجوا وأنها يجب أن تعترض على أوامر أمها، فهي لم

تعد طفلة صغيرة. الحقير الذي يكبرها بثمانية عشر عامًا على الأقل أقنعها أن تعصي أوامر أمها!

كادت ناريمان هانم أن تفقد عقلها عندما حدثتها ناهد عنه قائلة إنه سوف يأتي لزيارتنا في نهاية الأسبوع ليطلب يدها. وطلبت من حسني السائق أن يجلب لها أخباره. غطس حسني يومين وعاد لنا بتاريخه المشين، الباشا نزيل دائم في الليمان بسبب مهاجمته للريس ومهدد بالفصل من الجامعة بسبب نشاطه السياسي. أما حالته الاجتماعية فهو من سكان سطح إحدى عمارات حي الأنفوشي.

- يعني كحيان يا بنتي! هو دا يليق بيكِ برضه؟ وانتِ إيه اللي يرميكِ بس الرمية دي؟

رمقتني ناهد بعصبية وقالت بانفعال:

- الفلوس مش كل حاجة يا دادة رضا.

- ورد سجون كمان!

- دا بيدافع عن البلد وبيحارب الفساد وبعدين انتِ إيش فهمك انتِ يا دادة!

رمقتها ناريمان هانم بنظرة نارية فشعرت بالخجل وصمتت، بينما تحدثت ناريمان هانم بهدوء قائلة:

- خليه ييجي يا ناهد، أهلًا وسهلًا، وهنستقبله في بيتنا أحسن استقبال، لكن استقبالي له مش معناه أبدًا إني موافقة عليه.

- قابليه بس يا ماما وقرري بعدها.

ولم تضف زيارته لنا سوى المزيد من الرفض، فقد تمسكت ناريمان هانم برأيها بعد مقابلته وفهمت من حديثها أنه كان وقحًا للغاية معها حين رفضت عرضه.

مرت الأيام والشهور وظننا أن القصة انتهت عند هذا الحد. لكن الهانم لاحظت تغيرًا في سلوك ناهد، فصار الكذب يسكن معظم حديثها على عكس طبعها الذي نعرفه وصارت تهرب من حسني السائق طوال الوقت متحججة بزيادة عدد المحاضرات وتغير المواعيد.

استمر هذا الوضع حتى رأها حسني وهي تخرج من باب الكلية بينما إسماعيل هذا ينتظرها على الجانب الآخر من الطريق. وعندما وجهتها ناريمان هانم، ارتبكت بشدة وانهارت باكية واعترفت أنهم تزوجوا بدون علم الهانم! وسقط الخبر كالصاعقة على الهانم، وكأنها قد تلقت طعنة بخنجر مشبع بزيت ست الحسن في قلبها، مرضت وانزوت في غرفتها لأسبوع كامل لا تخرج ولا تتحدث حتى معي.

خيم الحزن على القصر بعدما قاطعت ناريمان هانم ناهد، ثم بدأت الهانم تسيطر على حزنها وحاولت أن تسجن ذلك الحقير وذهبت لتفضحه في مقر عمله بالجامعة، لكنها سرعان ما استسلمت وسحبت كل هذه الشكاوى بعدما حاولت ناهد قتل نفسها، بل وأضطرت أيضًا لمباركة الزواج واستقبال هذا الوغد في المنزل. لكنها كانت غاضبة للغاية... غاضبة وحزينة.

كنت أرى ذلك في عينيها وهي تنظر لهم وهم جالسون في غرفة البيانو... ناهد الصغيرة تعزف "أنا قلبي دليلي" بينما هو يقف وراءها

يقبل رأسها مبتسمًا بانتصار.

القذر! لقد ظفر بكل شيء، فتاة جميلة صغيرة ذات حسب ونسب، وجاء ليسكن في قصر لم يكن يحلم حتى أن يعمل حارسًا لبوابته! لا أذكر أنني رأيت ناريمان هانم بهذا الحزن من سنين. حاولت أن أهون عليها لكنها كانت تقول بحزن:

- تخيلي كل الستات دي بساعدهم وبخلصهم من الرجالة المسيطرين عليهم، مش عارفة أساعد بنتي ضد القذر اللي ضحك عليها واستغل براءتها وهيضيع مستقبلها.

نظرت له وهو يمزح بصخب بينما ناهد تحاول تعليمه العزف على البيانو وقلت للهانم همسًا:

- وماله... يبقى رقم 96.

ليلى

الإسكندرية – 2015..

وقفت دادة رضا وهي مطرقة رأسها أرضًا أمام جدتي التي تنتفض من الغضب قائلة:

- أوضة إيه اللي مسكونة يا رضا؟ انت جري لعقلك حاجة؟ إحنا بيتنا فيه عفريت؟

والتفتت إليّ قائلة بنفس الغضب:

- وانتِ بتصدقي الكلام ده برضة؟ طب دي ست جهلة ومخها ضرب.

ردت عليها بضيق:

- جدتي لو سمحتِ مفيش داعي للكلام ده.. دادة رضا مغلطتش و....

قاطعتني صائحة وهي ترمقها بغضب:

- لا غلطت.. وغلطة كبيرة... غلطة تانية زي دي ومش هعمل حساب للعشرة وأقولك ارجع بلدك يا رضا، سامعة؟

غمغت دادة رضا بشيء ما ساخطة وانصرفت ببطء، انفطر قلبي لحزنها فإني لم يسبق لي أن رأيت جدتي تعنفها بهذه القسوة، وهذه المرة أنا السبب بانفعالي وحماقتي. قاطعت جدتي حبل أفكاري قائلة:

- أنا مش عايزة أسمع الكلام الفاضي ده تاني.

صمت لوهلة ثم عدت أقول لها:

- بس أنا فعلًا بشوف حاجات مش طبيعية أبدًا... أنا النهاردا الباب اتقفل عليا في أوضة البيانو وفي حاجة... مسكت إيدي!

قاطعتني جدتي بعصبية:

- ليلى انتِ محتاجة دكتور نفسي... انتِ بيتهيألك حاجات.

- أنا مش مجنونة!

نهضت جدتي لتنهي الحوار قائلة:

- لو سمحتي يا ليلى أنا تعبانة ومعاد الشاي بتاعي جيه... أنا محتاجة أهدي أعصابي.. عن إذنك.

تركتني وحيدة في بهو القصر واتجهت للحديقة. كنت أعلم أنه من الصعب إقناع شخص بعقلية جدتي بشيء أنا شخصيًا غير واثقة منه. أنا لا زلت لا أفهم ماذا حدث بالغرفة؟ لكن حديث دادة رضا أكد لي أن هناك شيء غير طبيعي في الغرفة وأنني لست واهمة.

نظرت لمعصمي، آثار الأصابع الخمسة التي انغرزت فيه ما زالت هناك، أكبر دليل أنني لا أحتاج لطبيب نفسي.

صعدت باتجاه غرفتي وكان عليّ أن أمر أمام غرفة البيانو التي تقع في منتصف الممر الطويل الذي يؤدي لغرفتي. إنه ممر طويل وكئيب به أربعة غرف: غرفة الضيوف، وغرفة البيانو بعدها، تأتي غرفة أمي وأبي التي تمنعني جدتي من دخولها تمامًا، بحجة أنها

موصدة وهي لا تجد مفتاحها، ثم أخيرًا تأتي غرفتي وينتهي الممر بالدرج الذي يقود للدور العلوي المغلق بدوره منذ نعومة أظافري.

اعتادت دادة رضا أن تأخذني بنفسها لغرفتي عندما كنت طفلة لأنني كنت أخاف أن أرتاد هذا الممر المرعب يوميًا. أما الآن فإني امرأة في الثلاثينات، ربما ما زلت أرتجف ذعرًا لكنني سوف أتصرف بعكس ذلك. مررت أمام الغرفة الأولى بسلام ثم غرفة البيانو... لم يحدث شيء أيضًا... وصلت أمام غرفة أبي وأمي وتسمّرت قدمي... هناك صوت... صوت امرأة رفيع يدندن لحنًا لليلى مراد، الصوت ضعيف لكن مسموع... "أنا قلبي دليلي قال لي هتحبي..."

لا مجال للخطأ، لصقت أذني بالباب، لا يبدو أن الصوت قادم من هذا الاتجاه... لكنني سمعت صوت خطوات على الأرض الخشبية للغرفة المغلقة. مددت قبضتي للمقبض وحاولت فتح الباب الذي - يا للعجب!- استجاب وفتح بمنتهى السهولة.

الغرفة المظلمة! لقد ظللت أعوامًا عديدة أحاول فتحها خلسة بدون علم جدتي لكنها كانت دائمًا موصدة بإحكام. نظرت من حوالي لأتأكد أن لا جدتي ولا دادة رضا بالجوار، وأشعلت فلاش موبايل وخطوت للغرفة المظلمة بعدما قرأت آية الكرسي في سري. أغلقت الباب من خلفي وأسرعت للنافذة وأزحت الستائر الثقيلة... سعلت بشدة بعدما استنشقت الغبار الذي يغطي كل شيء حرفيًا.

تسلل ضوء النهار الباهت على استحياء لينير الغرفة، تطلعت لأثاث الغرفة الكلاسيكي الذي يعود لحقبة السبعينات، ورق الحائط المزخرف بالزهور الوردية، مرآة عملاقة ومستحضرات تجميل عتيقة

متناثرة على التسريحة هنا وهناك. لمستهم وأنا أرتجف... أشياء أمي الحبيبة رحمة الله عليها.

هناك صورة فوتوغرافية لأمي الجميلة، ترتدي فستانًا طويلًا وقلادة الفراشة التي كنت أراها ترتديها في معظم صورها... يقف بجوارها رجل أسمر طويل (أتراه أبي؟).

فراش ضخم خشبه مطلي باللون الكريمي المصفر بينما الزخارف الذهبية تملأ أطرافه... خزانة ملابس تحتل الحائط الأمامي، فتحتها لأجد ملابس أمي هناك. تحسست الأثواب الحريرية ذات الألوان القاتمة بحنان وشجن... شممت قماش أحد الأثواب... لا رائحة فيه للأسف. حاولت إخراج أحد الفساتين لكنني وجدته عالقًا في شيء ما من الأسفل. نظرت إلى ما أسفل الملابس، هناك في أسفل الخزانة تحت الملابس المعلقة... درج سري صغير.

درج أغلقه أحدهم بإستعجال... حتى أنه أغلقه على طرف الثوب الذي أردت أنا إخراجه من الخزانة. جلست أرضًا وسحبت الدرج ليفتح بصعوبة بالغة. كان ممتلئًا بالأوراق... أوراق صفراء قديمة وقصاصات من جرائد وزجاجة خضراء اللون بها سائل سميك وصور لرجل وامرأة في غرفة البيانو (رباه هل هما أبي وأمي؟) مفكرة قديمة ودبلة زواج مكتوب عليها "ناهد"! إنها تخص أبي بالتأكيد.

انهمرت دموعي وأنا أتحسس كنزي الصغير، لا أعلم إذا كانت جدتي تعلم بوجودهم وتعمدت إخفاءهم عني أم أن الغرفة مغلقة منذ وفاة أمي بالفعل كما أخبرتني. نهضت حاملة جميع محتويات الدرج واتجهت لباب الغرفة لأفتحه حتى أعود لغرفتي وأتفحص كل هذه

الأوراق بتمعن. ماذا!

لقد عاد الباب موصدًا كما كان على مدار الأعوام الماضية، وأنا الآن حبيسة الغرفة التي لا يظن جميع من في القصر أنها موصدة.

إسماعيل

الإسكندرية -1981..

في الأيام التالية، صارحت ناهد برغبتي في الرحيل من القصر. كان الأمر صاعقًا بالنسبة لها، فهي لا ترغب في الرحيل وترك أمها، خصوصًا بعدما بدأت الأمور في الاستقرار مؤخرًا بعد حملها.

- تمشي تروح فين يا إسماعيل؟

تأملت الجملة التي كتبتها في آخر صفحة بالمفكرة بالخط العريض: "لا بد من الرحيل عن قصر ال مرغني" وقلت لها بهدوء، متحاشيًا نظراتها:

- نمشي يا ناهد.. أنا وأنتِ نمشي من هنا.. نروح نقعد في شقتي في الأنفوشي.

- أنت شايف أن بحملي وحالتي الصحية دي أقدر أقعد في شقة الأنفوشي؟

- مالها شقة الأنفوشي؟ ما كنا بنتقابل فيها يا ناهد قبل ما نيجي نقعد هنا.

- ملهاش يا إسماعيل، بس إحنا في أول شهر سبتمبر يعني في عز الحر... والشقة فوق السطوح يعني سلم عالي وحر نار، وأنا دخلت في الشهر التاسع أهو.

- سبتمبر إيه اللي حر يا ناهد؟ إحنا في الخريف يا حبيبتي.

ثم تنهدت وقلت لها بهدوء:

- طيب خلاص نأجر شقة الشهر اللي فاضل ده لحد ما تولدي، ونرجع شقة الأنفوشي في أكتوبر يكون الجو اتحسن.

- هو في إيه؟ في حد ضايقك؟

صمتت ولم أعرف ماذا أقول... لا أستطيع إخبارها أنني تأكدت أن أمها قاتلة. لن أستطيع مواجهتها، للأسف.

- مفيش حاجة حبيبتي، أنا بس حاسس أني مش واخد راحتي في البيت.

رمقتني بشك. ناهد الحبيبة التي تكشفني عندما أكذب بمنتهى السهولة، لكنها بالرغم من ذلك لم تجادلني كثيرًا وقالت:

- طب اديني فرصة أمهد الموضوع لاماه.

هززت رأسي موافقًا، وقبلت جبينها قبل أن أخرج ذاهبًا للجامعة. مررت بالحديقة، فوجدت ناريمان هانم هناك تعتني بشجيرات البيلادونا جميلة المظهر بعناية فائقة، تلاقت عينانا في كراهية للحظة ثم أشاحت بوجهها عني.

وصلت الجامعة مبكرًا على الرغم من تأخر معاد محاضرتي الوحيدة اليوم. قضيت اليوم أطالع الجرائد وأنا أدخن سجائري وأشرب قهوتي. لا أعلم إلى متى سوف تستمر هذه المهزلة!

تم اليوم إصدار قرار بتحديد إقامة البابا شنودة، كما تم القبض على العديد من الرجال والنساء، اعتقالات جماعية لهؤلاء الذين أطلق عليهم السادات "عناصر الفتنة الطائفية". طرق أحدهم باب

غرفة أعضاء التدريس ثم دخل متجهًا إلى مكتبي. إنه مايكل... صديقي وطالبي المتفوق. تطلعت إلى وجهه الممتقع وهو يمسك بإحدى الجرائد وقال بصوت عالٍ غير مبالٍ بمن حولنا من الدكاترة والمعيدين:

- قبضوا على الأستاذ حسنين هيكل يا دكتور!

رمقه الجميع بكراهية ومقت، فجذبته من ذراعه لنخرج خارج الغرفة، بينما هو ما زال يتحدث بصوت عالٍ غير مبالٍ:

- دي عمليات اعتقالات عشوائية، هو الأستاذ هيكل إيه علاقته بالفتنة الطائفية؟ وبيحدد إقامة البابا!!!

قلت له هامسًا وأنا أتطلع حولنا:

- وطي صوتك يا بني آدم! الحيطان ليها ودان.

ثم أطلقت زفرة حارة وأكملت حديثي همسًا:

- ما انت عارف أن دي سياستهم من زمان... إيه الجديد؟

- انت موطي صوتك ليه؟ انت خايف منهم يا دكتور ولا إيه؟ جري لك إيه؟

زفرت في نفاد صبر وقلت له:

- أيوة خايف يا مايكل... ارتحت؟ أنا مراتي على وش ولادة... مش عايز أتأخذ أنا في الطلعة دي يا أخي! عايز أبقى جنبها وهي بتولد.

صمت مايكل وعاد يتحدث بصوت أكثر هدوءًا:

- ربنا يطمنك عليها يا دكتور، بس انت لما بتقول رأيك، انت بتحاول تخلي البلد دي أحسن عشان ابنك اللي جاي ده ميجيش يلاقيها خربانة خالص.

- انت عايز مني إيه يا مايكل؟

- على الأقل ساعد الحزب.

- أساعدكم إزاي؟

تلفت حوله ليتأكد أن لا أحد يسترق السمع لحديثنا وقال همسًا:

- أنا معايا ورق عايز أخبيه في مكان أمان، مكان بعيد عن الشبهات.

- ورق إيه؟

- دعوة للثورة جديدة، ثورة ضد الطغيان، هيتوزع قبل احتفاليات 6 أكتوبر بأسبوع. محتاج الورق يفضل في مكان أمان لحد يوم 26-9 وهاجي آخده منك.

- ومين قالك إن أنا بقيت بعيد عن الشبهات بقي؟

ضحك وقال:

- انت من ساعة ما سكنت في قصر في كفر عبده وبعدت عننا وعن اجتماعات الحزب، وانت بقيت بعيد عن أي شبهات. بذمتك حملة الاعتقالات عمرها قربت من كفر عبده؟

صمت وأنا أنظر إلى عينيه المتوسلة:

- أرجوك يا دكتور ساعدنا... إحنا كل شوية حد فينا يتقبض عليه والدنيا مش أمان... لكن انت بقالك سنتين بعيد عن كل ده... محدش هيجي جنبك.

- ولو انت اتقبض عليك، مين هيجي ياخد مني الورق ده؟

- هبعتلك حسين.

وضع الحقيبة الجلدية بين ذراعي واختفى في أقل من ثانية!

اعتذرت عن المحاضرة وعدت إلى القصر وأنا خائف، لا أعلم أين أخبئ الحقيبة، لا أريد لناهد أن تراها وتعلم أنني أتعاون مع الحزب في هذه الفترة الحرجة من حياتنا.

الحديقة خالية، تركت الحقيبة تحت شجرة التين على أن أعود إليها بعد قليل. صعدت لأطمئن على ناهد فوجدتها نائمة، فتحت الدرج السري في خزانة ثيابي.. ذلك الذي جعلت النجار يصنعه لي حتى يمكنني أن أخبئ بعض أوراقي الهامة المتعلقة بالحزب متى أردت.

خلعت دبلتي ووضعت محفظتي ومفكرتي والقنينة الخضراء التي أخذتها من معمل ناريمان في الدرج وأغلقته بإحكام.. علق طرف ثوب ناهد الحريري في الدرج.. حاولت معالجته لكن القماش الرقيق كاد أن يتمزق فتركته الآن على أن أعود إليه بعد قليل. وغيرت ملابسي لملابس أخرى قديمة.

ناريمان في غرفتها.. ممتازا! لا أريد أسئلة فضولية.

نزلت للقبو بحثًا عن أدوات حفر.. أريد أن أدفن الحقيبة في

الحديقة حتى يأتي مايكل ليأخذها، فإذا زارني رجال البوليس السياسي لن يجدوا أي شيء يدينني. حانت مني التفاتة لغرفة رضا الدادة التي كانت بابها مفتوحًا. كانت رضا تجلس على الفراش تمسك بحقيبتي الجلدية وتفحص محتوياتها!

لقد وجدتها... إذن أنا في مأزق لا أحسد عليه!

لكن ما أخذ عيني للوهلة الأولى حين وقفت على باب غرفتها هو حائط الغرفة الصغيرة. هناك ما يقرب من مئة اسم لرجل، كتبهم أحدهم بالطباشير الأبيض بخط كبير ليملأ الحائط.

أسماء.. يبدو بعضها أسماء لرجال من علية القوم أو بشوات من أصول تركية مثل حشمت.. جودات، بينما بعضها الآخر ذات رنين شعبي مثل فرج وشعبان... تسمرت عيني على بعض الأسماء المألوفة لي وسط الأسماء..

صلاح فخري..

واصف ويسا عبد الرسول..

حنا سلام!

رن الاسم الأخير في أذني وأنا أتذكر حديثًا سابقًا لي مع مايكل:

- "والدتي زبونة عندها من ساعة ما والدي ما توفي... أظن عايزة تتجوز تاني من بعد أبويا... مع أنها لو لفت الصعيد كله متلاقيش تاني زي المقدس حنا سلام، بتروح تشتري منها كريم ينعم كعب الرجلين.. طب بذمتك مش كانت تجيب لابويا شربة تخففه من الإسهال اللي جاب أجله ده؟".

الأمر واضح.. هذه أسماء ضحايا البلادونا. الضحايا الذين قد يشملون أقاربك.. أصدقائك المقربين.. أو حتى آبائهم!

أجفلت رضا حين وجدتني أقف فوق رأسها بينما هي تقلب في حقيبتي الجلدية وقالت بارتباك وهي تداري الحقيبة خلفها بغباء:

- يلزم خدمة يا بيه؟

غمغمت وأنا أقول لها بأنفاس متقطعة بينما عيني ما زالت متعلقة بالأسماء:

- كل دول ناس قتلتوهم بالسم يا رضا؟

اتسعت عينيها بذعر وهي تنظر لي بصمت وقالت بتوتر:

- إيه؟ سم إيه و قتل إيه يا بيه... انت..

قاطعتها قائلًا بحزم:

- هاتي الشنطة يا رضا.

حانت منها نظرة لشيء ما خلفي، فاستدرت بحدة لأجد ناريمان هانم تقف خلفي وهي تحمل في يديها بندقية عتيقة تصوبها نحوي، وقبل أن أقول أي شيء، رفعت كعب البندقية وضربت رأسي بها فسقطت أرضًا وأظلمت الدنيا.

ناريمان

الإسكندرية – 1981..

بالرغم من مرور عام على وجوده بالقصر معنا... ورغم سعادة ناهد وحبها له وحملها منه... إلا أنني لم أستطع أن أبتلع هذا الإسماعيل قط. مهما حاول أن يسترضيني ويمثل أنه متيم بناهد، إلا أنه لن يستطيع خداعي مثلما خدع ناهد الساذجة. إنني أعلم حقيقته جيدًا، أنه ليس سوى كائن طفيلي أجاد لعب دور العاشق ليوقع بناهد في حباله. والأسوأ أنني لم أسلم من نظراته الفضولية لزبائني ونباتاتي ومعملي. دائمًا هو هناك في الحديقة يتأمل السيدات القادمات، أو يفحص النبات ويتساءل عن سبب زراعة البلادونا في الحديقة - فالوغد طبيب صيدلي ويعلم جيدًا ماهية البيلادونا - بل ووجدته في يوم يتسلل إلى معملي ويفحص الزجاجات وأرتبك بشدة عندما سألته عن سبب وجوده.

حاولت رضا أن تقنعني أن أضمه لمجموعة البيلادونا. لا أنكر أنني فكرت في الأمر أكثر من مرة، لكن نظرة واحدة لسعادة ناهد وتعلقها بذراعه كالطفل الذي يتعلق بذراع أبيه كانت كفيلة أن أبعد الفكرة تمامًا عن عقلي. سوف أحتمله من أجل ناهد. فأنا على أتم الاستعداد لتحمل أي شيء من أجل ناهد. حتى جاء ذلك اليوم...

كنت قد رأيته يتلصص علي وأنا أسقي الزرع صباحًا فتعمدت أن أنظر إليه بغضب في عينه حتى يخجل من طريقته السخيفة، تبادلنا النظرات للحظات ثم انصرف بحركة عصبية، وعندما عدت للقصر وجدت ناهد مستيقظة وتعد بعض الينسون لنفسها في المطبخ،

رمقتني بعصبية غير مبررة ولم ترد على تحيتي الصباحية فعدت أسألها بهدوء:

- مالك يا ناهد؟ انتِ تعبانة؟

نظرت إليّ قائلة بعصبية:

- أنتِ ضايقتِ إسماعيل تاني؟

لا تتعجبوا... فهكذا صارت طريقة حديثها معي منذ قدوم هذا الوغد إلى المنزل.

- محدش داس له على طرف.

- أمال مش طايق يقعد في البيت وعايزنا نمشي ليه؟

- تمشوا تروحوا فين؟ وبعدين هو يمشي في ستين داهية.. لكن انتِ هنا جنبي متسبنيش.

تنهدت وجلست وهي تئن.. إنها في الشهر التاسع ولا تبدو بخير أبدًا. جرعت من الينسون الدافي وقالت:

- أنا مقدرش أسيب إسماعيل. لو هو مصمم يمشي، يبقى رجلي على رجله.

تطلعت بدهشة لوهلة ثم انهمرت دموعي لا إراديًا:

- وتسيبني؟ تسيبي أمك؟ أعيش لوحدي يا ناهد؟ أهون عليكِ تفارقيني؟

ألقت بقدح اليانسون على الأرض ليتهشم وصاحت بعصبية:

- انتِ اللي بطفشيه من البيت؟ انتِ اللي من أول يوم مش عايزاه وبتعامليه معاملة زي الزفت رغم أنك عارفة أنا بحبه قد إيه، إيه؟ مش هاين عليكِ تشوفيني مبسوطة؟ مش هاين عليكِ تشوفي أي ست في البيت ده متجوزة وبتحب وبتتحب؟ فاكراني دادة رضا هتحكمي عليها تترهبن عشان تبقي راضية عنها؟

ثم اقتربت مني وقالت في وقاحة بالغة:

- تكونيش غيرانة مني عشان اخترت واحد يعاملني كويس وميكسرنيش زي ما صلاح كان بيكسرك؟

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصفع خدها بقوة بالغة أسقطتها أرضًا. ظلت جالسة على الأرض تنظر إليّ بدهشة وهي تتحسس خدها ثم نهضت قائلة:

- ورحمة أبويا لا أنا ماشية وسايبكِ لوحدك!

شعرت برجفة في ركبتي اليسرى ودخلت غرفتي متثاقلة، أغلقت الباب من خلفي وتركت لدموعي العنان كما لم أفعل من قبل.. لقد كان حديث ناهد أقسى مما يجب، لم أتخيل أن هذه هي الصورة التي تراني عليها، مجرد امرأة أنانية لا تهتم بمشاعر الآخرين، بل وتعتقد أن خوفي عليها ونقمي على اختيارها السيئ ليس إلا غيرة نساء! أهذا هو كل شيء؟ أين معاناتي مع أبيها؟ أين خوفي عليها الذي لطالما كان يؤرق منامي ليلًا؟

شعرت في هذه اللحظة أن حياتي خاوية بلا معنى، وندمت على كل لحظة كدت أقدم فيها على إنهاء حياتي البائسة وتراجعت في

اللحظة الأخيرة من أجل ناهد. لقد تغيرت ناهد كثيرًا، صارت واحدة أخرى لا أعرفها. أكاد أجزم أن كل هذه الأفكار الملوثة جاءت من زوجها اللعين.

الحقير.. يريد أن يأخذها ويبتعد، لكنني لن أسمح له بذلك!

احتشدت كل هذه الأفكار برأسي وأنا أتطلع لبوابة القصر تفتح. لقد عاد اللعين من الخارج وهو يتلفت حوله كالمجرمين، يحتضن حقيبة جلدية بتوتر. اختبأت تحت سور شرفتي، لا أعلم لما؟ لكنني شعرت أنني لا أريده أن يراني وأنا أراقبه، خَبَأ حقيبته تحت شجرة التين ودخل القصر. وجدت رضا تعبر الحديقة مسرعة متجهة لمكان الحقيبة، يبدو أنها رأته هي الأخرى! أراها تفتحها وتخرج بعض الأوراق لتقرأها، تطلعت حولها وأسرعت باتجاه القبو حاملة الحقيبة. ما هذا الذي يوجد بالحقيبة ويجعل الجميع يتوتر لدى حملها؟

اتجهت للقبو حتى أسأل رضا عن الحقيبة. لا أعلم لما؟ لكنني وجدتني أخذ معي بندقية صلاح من خزانة الأسلحة بمكتبه. وهبطت للقبو بهدوء واتجهت لغرفة رضا لأجد ما توقعت حدوثه. إسماعيل يقف على باب غرفة رضا يسد عليها الطريق ويتحدث إليها بحدة قائلًا:

- كل دول ناس قتلتوهم بالسم يا رضا؟

الوغد! إذن هو يعلم بأمر السم! إن تواجده بالمعمل لم يكن صدفة إذًا. لا أعلم مدى ما يعرفه عن القصة، لكنها بالتأكيد ليست قشورًا. لقد ذكر السم، إذًا فهو محدد وواضح في حديثه. إسماعيل يعرف أكثر مما ينبغي.

آن الأوان لهذا العبث أن ينتهي إذن..

رفعت البندقية، بينما شعر هو بحركتي من خلفه فاستدار ليواجهني، لكنني عاجلته بضربة قاتلة بكعب البندقية سقط على إثرها قتيلًا، أو هكذا ظننته.

نهضت رضا وهي تضع أناملها على فمها لتمنع صرخة مكتومة كادت أن تفلت منها ثم قالت همسًا:

- يا نهار أسود، هنقول إيه لست ناهد؟ يا نهار أسود.. يا نهار أسود!

نهرتها بعصبية:

- جرى إيه يا رضا؟ اجمدي.. هي أول مرة؟

استعادت رضا رباطة جأشها وأعطتني بعض الأوراق من الحقيبة الجلدية، اطلعت على محتواها... تحريضات ثورية على النظام!

إذن لقد عاد لنشاطه السياسي، ولم يكتفِ بذلك بل غامر بأمان زوجته وجاء بتلك المنشورات إلى عقر داري! الخسيس!

عمومًا لم تكن تلك قضيتي من البداية، لقد كان وجود هذا الصرصور الفضولي بداخل القصر خطرًا كبيرًا لم أنتبه له. وها أنا أصلح هذا الخطأ...

رضا

الإسكندرية -1981..

رغم أنني أنا من كنت ألحّ على ناريمان هانم للتخلص من إسماعيل، جزاءً لها على ما اقترفه في حقها، وعلى سلبه لعقل ناهد وجعله عدوانيّة تجاه أمّها، إلا أن قلبي انفطر عندما هشّمت الهانم رأسه ببندقية الباشا العتيقة، وهذا ليس لأنه يستحق الشفقة... إنه كلب لا يُسوى، لكنني كنت أخاف على ناهد الصغيرة من صدمة الخبر. المسكينة تحبه كثيرًا.

لكن حزم الهانم جعلني أتجاهل مشاعري سريعًا، لقد تعلمت من الهانم على مدار الأعوام الماضية أن أكون عملية، سريعة البديهة، وأنحي جميع المشاعر اللحظية جانبًا.

- الموت هيطولنا كلنا يا رضا... كل واحد وله ساعته... وحنا مخدناش من عمرهم يوم زيادة عن معادهم.

هكذا كانت مقولتها الشهيرة.

قرأت الهانم الأوراق بتمعّن وقالت لي بحزم:

- رضا... احفري له حفرة هنا.

واختفت لنصف ساعة. كنت قد حفرت في الأرض الطينية للقبو حفرة لا بأس بها، وحين عادت، سألتها أين اختفت، فقالت وهي تربط ذراعيه خلف ظهره بحبل سميك وتساعدني في سحبه داخل الحفرة:

- كنت بتأكد إن ناهد نايمة... مش حابة إنه تصحي وتدور علينا وتيجي هنا.

صدرت منه حركة بسيطة ونحن نجره جرا، فاجفلت ثم ظننت نفسي واهمة حتى جاءت حركة أخرى أكثر وضوحًا فشهقت قائلة:

- دا لسه صاحي!

كان على طرف الحفرة، فدفعته الهانم بساقها ليسقط في الحفرة، وبدأت تهيل عليه التراب، بينما هو يحرك رأسه ببطء. عدت أكرر على مسمعها ما قلته لعلها لم تسمع:

- يا ناريمان هانم... الجدع صاحي!

تجاهلت حديثي وزادت من سرعة ردم الحفرة على إسماعيل الحي حتى انتهت تمامًا، ووقفت تلتقط أنفاسها وهي تتحاشى نظراتي ثم قالت وهي تحرك سيارة صلاح باشا القديمة لتوقفها فوق مكان الحفرة:

- ما أنا كنت عارفة إنه صاحي... أمال ربطت إيديه ليه؟

ليلى

الإسكندرية 2015..

ما الذي أغلق الباب؟ أو السؤال الأوقع... من الذي فتح لي الباب؟ فهذا الباب لطالما كان موصدًا منذ طفولتي، لماذا فُتح الآن بالذات؟ ولماذا فُتح لي أنا دونًا عن باقي أهل البيت؟ وكأن شيئًا ما يوجهني لاستكشاف الغرفة التي لم أرَها من قبل في حياتي.

والأهم أنني لم آتِ هنا إلا بعد ما سمعت حفيف الأقدام.

- سمعت؟

مرة أخرى تقودني السماعة لاكتشاف شيء ما يدور حولي لم أكن أشعر به من قبل.

كل هذه الأحداث بدأت منذ بدأت أنا في استخدام السماعة. ألم يقل لي هذا الشيء في غرفة البيانو:

- امشي ورا ودنك...

يبدو أن الأمر مرتبط بشكل واضح بحاسة السمع التي كانت متوقفة عندي، وما إن عادت إليّ بشكل جزئي بدأت أشعر بما حولي.

درتُ بداخل الغرفة أتحسس جدرانها وأنا أفكر في كيفية الخروج من هنا. فتحت الشرفة بصعوبة لتتساقط طبقات من الغبار فوق رأسي من خصاص النافذة. دخلت للشرفة وتطلعت لشرفتي المجاورة لها. حسبت المسافة بين الشرفتين وتأكدت من استحالة القفز بينهما، فعدلت عن الفكرة وعدت للداخل.

جلست على الفراش العتيق وتأملت الصورة: أبي وأمي... يا إلهي كم كانوا رائعين! احتضنت الصورة وأنا أستلقي على الفراش وأتطلع للسقف، ثم تناولت خاتم الزواج لارتديه في إصبعي. كان واسعًا قليلًا لكنني شعرت بالدفء لدى ملامسته لإصبعي.

تأملت القنينة الخضراء بتمعن... هناك كتابة بخط رقعة جميل على اللاصق الأمامي (ست الحسن). هل هو عطر؟ أم أنه أحد مستحضرات جدتي؟

تركته وتطلعت للمفكرة. تبدو قديمة للغاية والورق أصفر بداخلها. خط منمق صغير وكلام كثير للغاية. أترى خط أبي؟ بالتأكيد.

فتحت المفكرة على صفحات عشوائية. بعض الحديث عن أمي وجمال عيونها الزرقاء.. وحبه لها وغيرته عليها. وبعض الصفحات بها خواطر عن حالة البلد السيئة.. انتقادات لخطاب أنور السادات وارتفاع أسعار اللحمة وأقوال مأثورة. ثم بدأت الصفحات تأخذ طابعًا أكثر جدية وتنظيمًا لما يبدو أنه حدث كبير متسلسل بترتيب معين بدءًا بالحديث التالي:

- وفيات متفرقة لأزواج زبائن ناريمان هانم. أعراض مرض غير مفهوم (إعياء – إسهال – قيء) تصيبهم... أعراض تسمم؟ واصف الجواهرجي – زوج دكتورة نجوى – زوج مدام مديحة. هناك شيء غامض في كل هذا... شيء يبدو مرعبًا.

اعتدلت في جلستي وأنا أقرأ ما دونه أبي العزيز عن ما اكتشفه في عام 1981 عن جدتي ناريمان هانم المرغني.

إسماعيل

الإسكندرية -1981..

وقفت أتطلع لناريمان ورضا وهما يتحدثان. أوقفت ناريمان سيارة صلاح زوجها الراحل العتيقة فوق الحفرة وترجلت منها قائلة لرضا:

- ما أنا عارفة إنه لسه عايش، أمال ربطته ليه؟

بدت رضا متوترة للغاية وهي تطلع لخارج القبو من النافذة الصغيرة، خائفة من استيقاظ ناهد، وقالت لها همسًا وهي تلطم خدها:

- ولما ناهد تسأل عنه هنقولها إيه؟

- هنقولها جه وإنتِ نايمة، ساب الشنطة دي وخرج متلهوج، وبعد شوية البوليس جيه سأل عليه... فتحنا الشنطة لقينا فيها منشورات وقرف... تروح تدور عليه بقي في الأقسام... إحنا في عصر الإعتقالات القسرية وقانون الطوارئ... أكنهم اعتقلوه وراح ورا الشمس.

- ما هو كل مرة كانوا بياخدوه وبيسبوه بعد شهر ولا حاجة، هيفضل مش ظاهر كده؟ وناهد هتسكت؟!

- المرة دي غير يا رضا.. البلد بتغلي والسادات عمال يقفش في كل الناس اللي بتعارضه وبيخفيهم، شباب على كبار.. مثقفين على جهلة.. إسلاميين على مسيحيين.

صمتت رضا وهي تزن الحديث، وخرجت ناريمان من المكان وهي

تحمل حقيبتي الجلدية، بينما عادت رضا لغرفتها وجلست على فراشها لتلتقط أنفاسها، ثم نهضت لتدون اسمي على الحائط تحت الأسامي.

إسماعيل كامل عبدالحي.

شعرت بالغضب وصعد الدم إلى رأسي، مدت يدي لأجذبها من شعرها فوجدت أن يدي تعبر من خلالها كما تعبر من المياه!

شهقت برعب وشهقت هي الأخرى!

استندت على الحائط وقد مادت الأرض بي، بينما أخذت هي تدور حول نفسها بذعر قائلة:

- مين؟ مين؟ مين هناك؟

قلت بصوت مبحوح:

- أنا... أنا... أنا هنا يا رضا!

وتحولت رغبتي العنيفة في تهشيم رأسها إلى رغبة محمومة أن تراني، أن تسمعني... رغبة أن أنفي الفكرة التي بدأت تتبلور أمامي... إنها لا تسمعني ولا تراني لأنني لست حي! ... أنا غير مرئي!

حاولت لمسها مرة أخرى، فعادت يدي تعبر من خلال جسدها، بينما صرخت هي وأطلقت ساقيها للريح. سقطت أرضًا وزحفت محاولًا اللحاق بها، خرجت من غرفتها حتى وصلت للحفرة أسفل السيارة، وحاولت أن أحفر بأناملي الأرض، أريد أن أخرج جسدي من هذا القبر المظلم، أريد أن أستخلصني من هذا المنفى الأبدي الذي عزلتني به

هذه اللعينة.

لكن يدي لا قوة لها... ولا وجود مادي لها!!

يدي التي تحولت إلى خيال أسود اللون... سحابة من الدخان... تطلعت لقدمي... لباقي جسدي، لقد فقدت هيئتي البشرية... وصرت مجرد كيان أسود اللون!

أنا شبح إسماعيل...

ناريمان

الإسكندرية 1981..

لم أفهم شيئًا من حديث رضا الغير مرتب. لقد جاءت خلفي بدقائق وهي تبكي وتلطم خديها قائلة وهي تنشج:

- فيه حاجة تحت.. فيه حاجة تحت.. حابس حابس.. فيه حاجة تحت!

- حاجة إيه يا رضا؟ وطي صوتك.. ناهد هتصحى!

- ما تصحى! بقولك فيه حاجة تحت.. حاجة مسكتني من هدومي.. إيد ساقعة تلج.. بسم الله الرحمن الرحيم يا ست ناريمان!

- بطلي تخاريف يا رضا.

- أقسم بالله في حاجة تحت!

تنهدت وقلت لها بهدوء محاولة امتصاص هيستيريتها:

- طب اهدي بس، ادخلي اغسلي وشك واهدي كده... ناهد هتصحى كمان شوية وعايزين نبقى طبيعيين قدامها.

انسحبت من بهو القصر وهي تولول بينما ذهبت لغرفتي أنا الأخرى لأغتسل من الغبار وأغير ملابسي، تطلعت لصورة صلاح التي أبقيتها على التسريحة حتى لا أضايق ناهد.

خيل لي أنه ينظر إلي اليوم بحقد أكثر مما ينبغي. قلبت الصورة على ظهرها فأنا لا أريد أن أرى هذا القذر!

ودخلت لحوض الاستحمام، استسلمت للماء الدافئ لتزيل همومي وأنا أحاول أن أتمالك أعصابي. قد أبدو أمام الجميع قوية ومسيطرة، لكن الموقف مرعب بشدة في الواقع.

لم يكن القتل يومًا أمرًا هينًا علي، لكنه كان حتميًا هذه المرة أيضًا مثلما كان حتميًا يوم قتلي لفرج. إسماعيل يكرهني بشدة ولم يكن ليتورع عن إخبار الشرطة بأمر البيلادونا وإفشاء أمر السر الذي أخفيته طوال هذه الأعوام. أستطيع أن أتخيل الحزن والكآبة التي سوف تطول ناهد الفترة القادمة، لكنها سوف تنسى بعد فترة... حتمًا سوف تنسى. الوقت كفيل بمداوة جميع الأوجاع، كما أنني أنقذتها من هذا الطفيلي. يومًا ما سوف تشكرني على ما فعلته من أجلها.

- ده لو عرفت يعني إيه اللي حصل.

قلتها لنفسي وأطلقت ضحكة خافتة، أغمضت عيني لأغسل الصابون عن وجهي، حين شعرت بهواء بارد كالذي يصدر عندما تمر سيارة مسرعة بجوارك!

أجفلت وفتحت عيني فحرقني الصابون الذي لم أغسله جيدًا.

- رضا؟ عايزة حاجة؟

لكنها لم تجب، ببساطة لأنه لا أحد هناك.

أنهيت حمامي وأغلقت الصنبور وخرجت متوجسة أتأمل الغرفة، لا أحد هناك هنا أيضًا... رضا الحمقاء نقلت إلي هيستيريتها. يجب أن أنزل للحديقة، أريد أن أمارس حياتي بشكل طبيعي حتى لا تشك ناهد بأمري حين تستيقظ. سوف أعتذر لها وأحاول أن أستبقيها و...

ما هذا؟

من الذي قام بإعادة صورة صلاح لحالتها الأولى؟

بل والأدهى أن تعبير وجهه اختلف كثيرًا!

إنه يبتسم بسخرية وهو يتأملني، بينما انعكاس خيال كيان أسود اللون ينعكس على زجاج الصورة!!!

رضا

الإسكندرية -1981:..

أنا لست بواهمة!

لقد شعرت بأحدهم يحاول لمسي ولم يكن هناك أحد!

إن الأمر لا تفسير له سوى عفريت إسماعيل والعياذ بالله. معلوم، قتلته الهانم ودفنته على بعد أمتار قليلة من غرفة نومي، لا بد أن عفريته الغاضب سيظل يخرج لي ليحيل حياتي جحيمًا. لن يترك حقه!

والهانم لا تصدق بالطبع!

الحمقاء، هي تقتل وأنا اضطر لمجاورة الجثة ليلًا!

كنت أفكر في كل هذا حين سمعت صرخة ناريمان هانم القادمة من غرفتها، صعدت لها مسرعة بينما وقفت ناهد نصف نائمة وعينها الحمراء لم تفارقهما النوم بعد، طرقنا الباب بعنف حتى فتحت لنا بوجه أصفر!

- ماماه انتِ كويسة؟

هزت رأسها ثم قالت متظاهرة بالقوة:

- فار.. شوفت فار.

لكنني كنت أعلم أن الأمر أكبر من هذا بكثير، ناريمان هانم القوية لن يهتز لها شعرة لدى رؤية فأر بريء. أغلقت الباب في وجهنا

بينما عادت ناهد لغرفتها. جلست أنتظرها حتى خرجت من غرفتها وسألتها بلهفة:

- إيه اللي حصل يا ست هانم؟

تجنبت النظر لي قائلة:

- مش مهم يا رضا.. عرفتِ هتقولي إيه لما ناهد تفوق؟

- أيوة يا ست هانم.. إسماعيل بيه جيه وكان مستعجل وساب الشنطة دي، وبعد شوية رجالة الحكومة دخلوا يدوروا عليه ومشيوا.

- تمام.

- مش هتقولي لي حصل إيه فوق.. هو طلع لك؟

- هو إيه دا.. بطلي هبل يا رضا!

بعد ساعة وجدنا ناهد تقف أمامنا في بهو القصر. لم تكن ناهد على ما يرام أبدًا، لكننا لم نكن نعلم ماذا هناك. نظرت لناريمان هانم بنظرة اتهام وشفتيها ترتعش بينما نهضت الهانم لتقوم بما سبق واتفقنا عليه، فأخرجت الأوراق من الحقيبة ووضعتها في مستوى نظر ناهد قائلة:

- جوزك اللي عمالة تتخانقي معايا عشانه رجع للسياسة تاني، جايب لنا منشورات لحد بيتنا.. البوليس لسه ماشي من ساعة كانوا جايين ياخدوه يا ناهد.

تدخلت أنا في الحديث لأقدم الدور الذي رسمته لي ناريمان هانم

وأنا عيني مازلت متعلقة بملامح ناهد ونظرتها الغريبة لأمها:

- الحكومة جات تدور عليه.. ربنا ستر إنه كان سايب الشنطة في الجنينة لو كانوا لقوها الله أعلم كانوا ممكن ياخدوكِ معاه يا بنتي.

لكن ناهد لا تسمعني وتطلع لأمها التي بدأت تتوتر وقالت لها:

- انتِ سامعنا؟؟

قالت لها ناهد بصوت متقطع ودموعها تنهمر بغزارة:

- انتِ... قتلتِ إسماعيل؟

سقطت الجملة كالصاعقة علينا ووقفنا صامتين لا نعرف ماذا نقول ولا كيف عرفت بهذه السرعة. ثم تماسكت ناريمان هانم وقالت لها باستنكار مزيف:

- انتِ بتخرفي بتقولي إيه؟

- إسماعيل وراني كل حاجة!

وخرجت مسرعة متجهة للقبو فركضنا وراءها لنمنعها لكنها كانت أسرع منا ووقفت أمام سيارة أبيها منقطعة الأنفاس وقالت همسًا:

- زي ما وراني... العربية اتحركت عشان تقف فوق قبره!

وسقطت على ركبتيها تحفر الأرض بأيدها وهي تبكي بحرقة، حاولت منعها لكنها ركلتني أسفل بطني بقدمها فسقطت أرضًا أتلوى بألم بينما ناريمان هانم تسمرت مكانها.

أخذت ناهد تحفر الأرض حتى ظهرت رأس إسماعيل، وضعت

إصبعها على رقبته لتتحسس نبضه في لهفة، ثم عادت لتحفر وتزيح التراب عن صدره، استغرق الأمر حوالي دقيقتين حتى ظهر نصفه العلوي، حاولت ناهد جذبه من الحفرة لكن الأمر كان مستحيلًا لضيق الحفرة ولأن نصفه الآخر مازال عالقًا تحت التراب، فجذبت نصفه العلوي لليمين قليلًا حتى لا يكون أسفل السيارة وأخذت تضغط على صدره بكلتا قبضتيها وتضع أذنه على صدره وتعيد الكرة.

تحركت ناريمان هانم على أثر صراخها وجذبتها بعيدًا عن جسده وقالت لها:

- مات يا ناهد خلاص مات.

دفعتها ناهد وهي تلطم خديها:

- كان صاحي... كان صاحي.. دفنتوه وهو صاااحي كان صاحي!

وأخذت تصرخ بهستيريا، فتحاملت على نفسي ونهضت لأغلق باب القبو حتى لا يصل صوتها للخارج. أمسكت ناهد ببطنها المنتفخ وصارت تصرخ من الألم فجأة، نظرت لها ناريمان هانم وقالت لي صارخة:

- هتولد يا رضا هتولد... شيليها معايا.

حملناها وصعدنا بها للدور الأول ثم الدور الثاني لغرفتها.

- أطلب الحكيمة يا ست هانم؟

- أنا هولدها.

- طب ما أطلب الحكيمة أحسن تساعدنا!

نظرت لي غاضبة:

- عشان تحكي لها عن اللي حصل؟؟ روحي يا رضا سخني لي مية بسرعة!

صراخها كان يصم الأذن... اختلط به الحزن والألم والحسرة. أما ما كان مرعبًا أكثر من صراخها فهو أنها كانت تنظر للحائط البعيد وتتحدث لأحدهم طوال وقت ولادتها!

استغرق الأمر ما يقرب من الساعة حتى ولدت فتاة جميلة وغرقت ناهد في سبات عميق بعدما حقنتها الهانم بسائل شفاف في عروقها. نظرنا للفتاة الملوثة بالدماء التي تبكي بصوت رفيع ونحن نتساءل:

كيف عرفت ناهد بما حدث؟

سألت ناريمان هانم:

- انتِ شوفتيه صح؟

هزت رأسها نعم.

فيما يبدو أن إسماعيل لن يصمت عما حدث له!

ليلى

الإسكندرية -2015..

أنهى أبي حديثه عن ناريمان هانم في مفكرته قائلًا:

"لا بد من الرحيل عن قصر آل مرغني".

وتوقفت كلماته عند هذا الحد. قلبت المفكرة رأسًا على عقب بحثًا عن باقي القصة لكنني لم أجد... مجرد ورق أصفر متآكل. لم أشعر بدموعي وهي تجري على خدي إلا عندما سقطت على ورق المفكرة، ليسيح الحبر في إحدى الصفحات. إن كل هذا أكبر من قدرتي على الاحتمال.

لقد قضيت 35 عامًا لا أعرف أي شيء عن أبي، أتوق لأي معلومة ولو حتى عابرة عنه، وحين يحالفني الحظ وأجد مفكرته، اكتشف أنه كان يبحث وراء حقيقة جدتي الغامضة.

جدتي القاتلة!

هذه السيدة الأرستقراطية الجميلة ذات الملامح الملائكية هي المسئولة الأولى عن سلسلة من الجرائم بدأت في الستينات وراح ضحيتها كما ذكر أبي ما يقرب من مئة رجل، وجدي كان أحدهم! والأسوأ أن الأمر لم يُكتشف حتى هذه اللحظة ومرّ مرور الكرام على أسر هؤلاء الرجال!

هل لهذه القصة علاقة برحيل أبي وهجره لنا؟

وكيف لم تجد أمي هذه المفكرة؟!

هل كانت هناك في هذا الدرج السري كل هذه الأعوام بدون أن يكتشفها أحدهم حقًا؟

وهل ظلت الغرفة مغلقة طوال هذه الأعوام مثلما قالت جدتي؟

إذا كانت هذه هي الحقيقة فهذا يعني أن الباب فتح لي خصيصًا اليوم!

- يبقى وجودي هنا ما كانش صدفة؟

أنهيت جملتي وفوجئت أن باب الحجرة المغلق ينفتح وحده! وكأن الغرفة تعلن عن معاد انتهاء زيارتي القصيرة لها. نهضت مذعورة ولم أنسَ أن آخذ معي الأشياء التي وجدتها بداخل الدرج، خرجت مسرعة من الغرفة لينغلق الباب من خلفي بعنف فركضت برعب عائدة لغرفتي.

دخلت غرفتي وألقيت حملي الثمين على الفراش وخلعت سماعتي وألقيتها أرضًا، أريد أن أنفصل عن العالم الخارجي. تقوقعت في ركن الغرفة لساعات أبكي وأحاول تفسير كل ما يحدث، الأمر شديد الغموض والقصة غير مكتملة الأركان والأسوأ والأكثر رعبًا بالنسبة لي هو الطابع الماورائي لخلفية القصة. هناك شيء غير مرئي يقودني لكل هذا، وهذا الشيء يبدو أنه كان في القصر دومًا لكنني لم أبدأ بالشعور به إلا بعد أن عاد سمعي إلي بسبب السماعة.

نهضت وأخذت السماعة ووضعتها على المكتب أمامي لأتأملها بتمعن. لا أعلم هل أمتن لوجودها في حياتي أم ألعنها. لقد قلبت حياتي رأسًا على عقب في أقل من أسبوع لكنها كذلك أنارت

بصيرتي وكشفت عن نقاط كان من المستحيل معرفتها بدونها. وضعتها في أذني ببطء شديد فالتقطت أذني صوتًا ما من خارج الغرفة، إنه صوت جدتي تصرخ قائلة:

- انتِ فضلتيه على أمك أكتر من مرة! ودلوقتي كمان هتقفي في صفه تاني وعايزة تأذيني؟

إنه نفس الحوار الذي سبق وسمعته وأنكرته جدتي. خرجت من غرفتي محاولة تتبع مصدر الصوت. إنه قادم من غرفة أمي المغلقة! صوت جدتي مستمرًا:

- انتِ مش هتخرجي من البيت يا ناهد... على جثتي..

مددت يدي وحاولت فتح الباب بهيستيريا لكن الصوت توقف تمامًا لدى حركتي العنيفة. ابتعدت عن الباب لعل الصوت يعود عندما يشعر أنني ابتعدت، لكن الأمر بالتأكيد ليس بهذه السهولة!

وقفت أمام الباب طويلًا حتى آلمتني قدمي من الوقفة، فجلست في الممر أرضًا أمام الباب في انتظار سماع المزيد. مرت دقائق، والدقائق احتشدت لتصير ساعة ثم ساعتين ثم ثلاث ساعات وأنا أفترش الأرض بسكون كالتمثال حتى سمعت صوتًا آخر.

صوت امرأة تغني بحزن. خلعت سماعتي فاختفى، وضعتها في أذني فعاد. إنه ضعيف للغاية لكنه مسموع!

نهضت من مكاني وألصقت أذني بالباب... لا... إنه لا يأتي من الغرفة هذه المرة!

خطوت عدة خطوات سريعة في الممر محاولة تتبع مصدر الصوت

أريد أن أصل إليه قبل أن يتلاشى، فهو تارة يتعالى... وتارة يضعف:

"أنا قلبي دليلي... قال لي هتحبي"..

هذا ما تغنيه السيدة بصوت منخفض.

توقف الصوت فجأة، فخلعت السماعة من أذني وعدلت من وضع البطارية بداخلها وعدت أرتديها على عجل. انتظرت لثوانٍ معدودة حتى تعود للعمل. ها هو ذا الصوت يعود من جديد لكنه ما لبث أن خفض مجددًا حتى توقف تمامًا فكدت أن أفقد عقلي وصرت أذرع الممر الجانبي ذهابًا وإيابًا.

شعرت بالبرودة تغمر جسدي بشدة حتى رجفت، هذا الشعور يبدو مألوفًا. يبدو أنه هنا في مكان ما هنا... نظرت حولي فوجدت بالفعل، ذلك الكيان الأسود الذي رأيته في غرفة البيانو يقف هناك ساكنًا في الركن المظلم من الممر لا يظهر منه شيئًا تقريبًا فلا أفهم أين تبدأ حدود هالته السوداء وأين تنتهي!

سرعان ما تحرك بسرعة الضوء وعبر من خلال جسدي، كاد قلبي أن يتوقف لحظة مروره بداخلي وما أن صار خلفي استدرت له فلمس ذراعي، لمسة خفيفة كانت كافية ليتجمد جسدي ومضى إلى الأمام فشعرت أنه يريدني أن أتبعه، فتبعته راجفة.

مررنا أمام غرفة الضيوف .. غرفة البيانو .. غرفة أبي وأمي .. ثم أخيرًا غرفتي. اقترب من الدرج في نهاية الممر وأنا أتبعهُ بخطواتٍ متباطئة، إنه ذلك الدرج الذي يقود للطابق العلوي المغلق منذ أعوامٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى.

ما هذا! الصوت يتعالى مجددًا!

تأملتُ الدرج، وضغطتُ السماعة داخل أذني حتى كدتُ أن أخترق طبلة أذني، وكلما خطوتُ خطوةً للأمام صار الصوت أكثر وضوحًا. لا مجال للشك! إنه الصوت الذي سمعته من قبل والذي لا أعرف مصدره. صوت امرأة حزينة تغني بصوتٍ متقطعٍ خافت.

لا أعلم من أين يأتي أو كيف التقطت ذبذباته سماعتي شديدة الحساسية، ومن الواضح أن مصدره هو الطابق العلوي المهجور. اختفى الكيان الغامض وتركَني أمام الباب المغلق، أسمع صوت السيدة التي تغني وأرتجف وأنا أتساءل ماذا يوجد في الطابق العلوي من القصر!

إسماعيل

الإسكندرية – 1981..

عندما خرجتُ من القبو وصعدتُ للقصر، كنتُ غاضبًا، وغضبي كان كفيلًا بحرق كل شيء، لكنني كنتُ مكتوفَ الأيدي لا أعلم ماذا أفعل.. أريد لناهد أن تعلم بما حدث .. وأريد أن أعاقبهم، لا بد وأن يأخذوا جزاءهم!

ناريمان القاتلة .. يجب أن يعرف الجميع حقيقتها، ومساعدتها رضا التي تتظاهر بالضعف بينما هما الاثنان أشد بأسًا من ريا وسكينة. وبينما انشغل عقلي بهذه الأفكار، وجدتُني فجأة في غرفة ناريمان، لا أعلم كيف تم انتقالي بهذه السرعة!

يبدو أنني اكتسبتُ قدراتٍ مختلفة!

الحقيرة دخلت غرفتها، وقفت تتأمل صورة زوجها الذي قتلته يومًا ما، ثم قلبت الصورة ودخلت لتتحمم بمنتهى الهدوء كأن شيئًا لم يكن. حاولتُ أن أمسك بعنقها لأهشمها بقبضتي، لكن للأسف لم أستطع، إن وجودي غير المادي يعوقني كثيرًا. لكنهم يشعرون بي بشكل ما. فمثلما حدث مع رضا، وجدتُ ناريمان تنتفض لدى لمسها وتنادي بذعر:

- رضا؟ عايزة حاجة؟

ابتعدتُ عنها وخرجتُ للغرفة متسائلًا: هل يمكنها أن تراني؟ رضا لم ترَني لكنها شعرت بي، أريدها أن تراني أو تشعر بوجودي، لمستُ البرواز الخشبي المقلوب وحاولتُ إعادته لوضعه الأول. في البداية

لم يستجب لمحاولتي، وصارت يدي تعبر من خلاله كما حدث معهن، لكنني حاولت أكثر من مرة، فوجدت أنه مع التركيز الشديد تمكنت من تحريكه ببطء.

استمرت محاولاتي حتى استطعت بالكثير من الجهد إعادته لوضعه الأول. خرجت ناريمان من الحمام بحذر، ووقعت عينها على البرواز الخشبي، ونظرت باتجاهي ثم صرخت وهي تلتصق بالحائط. لا أعلم إذا كانت قد رأتني حقًا!

طرق شديد على الباب، إنها رضا وناهد تتساءلان إذا كانت بخير: ناهد!

أريد أن أصل لناهد، أريد أن أخبرها بما حدث. وجدتُني فجأة في غرفة ناهد! يبدو أنني أنتقل للمكان حين أركز تفكيري به!

ناهد الحبيبة عادت لغرفتها، واستلقت في الفراش، لم تمضِ سوى ثوانٍ معدودة حتى راحت في سباتٍ عميق. تطلعتُ لملامحها الهادئة الجميلة.

ماذا أفعل يا إلهي! أنا لا أريدها أن تجزع مثلما حدث لرضا وناريمان حينما لمستهما.

همست في أذنها بيأس:

- ناهد! عقدت حاجبيها ثم ابتسمت وهي مغمضة عينيها وهمست:

- إسماعيل؟ برقت عيناي وقلت لها بلهفة:

- إنتِ سمعاني؟

هزت رأسها وهي ما زالت نائمة:

- ناهد .. حصل حاجة وحشة أوي .. أوعديني إنك هتمسكي نفسك وتتصرفي صح.

قضبت حاجبيها وتحركت في الفراش بحركة عصبية صغيرة ثم قالت لي همسًا:

- انتِ مرجعتش ليه كل ده؟

- عشان مش هقدر أرجع تاني.

انحدرت دموعها من عينها المغلقة وأنا أقص عليها ما فعلته أمها ورضا.

ناريمان

الإسكندرية – 1981..

استيقظت ناهد مرهقة شاحبة من ولادتها الصعبة، فوجدتني أجلس بجوارها وأحمل طفلتها الصغيرة الهادئة. ما أن فتحت عينها حتى بكت وهي تئن هامسة:

- إسماعيل. لكنني وضعت الطفلة بين ذراعيها متجاهلة ما تقوله:

- البنت لازم ترضع... فوقي يا ناهد كده عشان ترضعيها.

اعتدلت في جلستها بصعوبة، حاولتُ أن أساعدها لكنها دفعت يدي بعيدًا عنها، تطلعت للطفلة وابتسمت، وعينها تبللها الدموع وقالت:

- ليلى!

احتضنتها باكية وبدأت ترضعها حتى استكانت الرضيعة ونامت في أحضانها.

نهضت ناهد ببطء مستندة على الحائط، وفتحت خزانة الثياب لتخرج ثوب خروج وجلست على الفراش تبدل ملابسها بصعوبة وهي تئن:

- بتلبسي ورايحة فين؟ ناهد انتِ تعبانة، هتروحي فين يا حبيبتي.. ناهد غلط عليكِ تخرجي دلوقتي.

لكنها ظلت صامتة وهي تحاول ارتداء الثوب. انتهزتُ فرصة صمتها وأخذت نفسًا عميقًا ثم بدأت أقص عليها كل ما حدث في العشرين عامًا الماضية، بدايةً بما فعله أبوها معي، مرورًا بمدى

صعوبة ما كانت تمر به النساء اللاتي قمتُ بمساعدتهن من ضرب وإهانة وتشويه لسمعتهن، وصولًا لإسماعيل الذي حطم قلبي عندما تزوجها بدون علمي وفضوله في التدخل بشؤوني، ثم محاولته كشف السر الذي جاهدتُ حتى أخفيه طوال هذه الأعوام.

وبعد مرور ما يقرب من الساعة، كنتُ قد أنهيت حديثي، لم تبدِ أي علامة على أنها استمعت إلي طوال حديثي، ونهضت ببطء لتضع قدميها في الحذاء، ثم حملت الرضيعة وفتحت باب غرفتها وخرجت، فخرجتُ خلفها قائلة برفق:

- انتِ رايحة فين طيب؟ ردي عليا يا ناهد.

لم تجبني، وخطت عدة خطوات بطيئة في الممر وهي تستند إلى الحائط. جذبتها من ذراعها برفق، لكنها كانت أضعف مما ينبغي فسقطت أرضًا، وسقطت منها الرضيعة أرضًا لتصرخ بصوت رفيع. فجزعت ناهد واحتضنتها لتهدئها وهي تطلع إليّ بنظرات كراهية كالسهام، فقلت لها برجاء:

- متبصليش كدا يا ناهد!

- أنا بكرهك ومش هرتاح غير لما تتشنقي!

تصاعدت الدماء لرأسي وتبادلنا النظرات لوهلة، ثم أخذت الرضيعة من بين يديها بقوة وقلت لها:

- مفيش خروج من البيت!

تحاملت على نفسها لتنهض وحاولت أخذ الرضيعة من بين ذراعي، لكنني دفعتها بعيدًا قائلة:

- مش هتاخديها، لحد ما تعقلي كدا!

- هاتي ليلى بقولك!

- مفيش ليلى وادخلي على أوضتك يلا!

- انتِ فاكراني هخاف منك زي زمان! هاتي ليلى بقولك!

- مش هتخرجي، عايزة تخرجي عشان تروحي تبلغي عني؟ تبلغي عن أمك؟! وعشان مين؟ عشان الواطى دا؟! عملك إيه إسماعيل دا، انتِ فضلتيه على أمك أكتر من مرة! ودلوقتي كمان هتقفي في صفه تاني وعايزة تأذيني؟!

ابتعدت عدة خطوات ونزلت درجتين من الدرج الذي يؤدي للطابق الأول، فلحقتني ناهد وجذبتني من شعري لتجبرني أن أترك لها الرضيعة قائلة:

- هاتي ليلى بقولك.. هاتيها!

- مش هتاخديها، وانتِ مش هتخرجي من البيت يا ناهد... على جثتي!

لكمت كتفها حتى أجبرها على ترك شعري، فاختل توازنها وسقطت من على الدرج العالي. أكاد أجزم أنني سمعت تهشم فقرات عنقها من مكاني هذا. ثم ساد الصمت!

رضا

الإسكندرية – 1981..

كان صوت ناريمان هانم وناهد عاليًا للغاية. لحسن الحظ أن القصر ضخم والحديقة من حوله واسعة، فلن يصل صوت شجارهم إلى أسرة الشماشيرجي أو المارة في الشارع.

صعدت من القبو ركضًا حتى أوقف الشجار. لقد نصحت ناريمان هانم ألا تتحدث مع ناهد الآن، فالمسكينة في صدمة كبيرة بعدما اكتشفت موت إسماعيل، لكن بالطبع الهانم لم تسمع نصائحي كالمعتاد. دومًا (شورتها من دماغها). عندما دخلت القصر، كان الصوت قد توقف تمامًا. صوت بكاء الرضيعة يتعالى بشدة، لكن لا صوت لناهد أو لناريمان هانم!

اقتربت من الدرج لأصعد لهم، فوجدت المشهد الآتي:

ناهد نائمة على الأرض، تسبح في بركة من الدماء تتسرب من جرح دامي برأسها وقد شخص بصرها، بينما ناريمان هانم جالسة على ركبها بجوارها في ذهول، وهي ما زالت تحمل الرضيعة الباكية بين ذراعيها. ركضت إلى ناريمان هانم وأخذت الرضيعة منها صارخة فيها:

- شوفيها يا ناريمان هانم، شوفيها... شوفيها فيها نفس ولا لا!

هزت الهانم رأسها نافية بصمت. جلست أرضًا فساقي لم تستطع أن تحملني وأنا لا أعرف ماذا أفعل؟!

الصغيرة تبكي بحرقة، بينما شاركتها أنا اللطم على خدي والبكاء، وناريمان هانم لا تحرك ساكنًا وهي تطلع لجسد ناهد وتتحسس شعرها الذي تخضب بالدماء. لا أعلم كم استغرقنا من الوقت في حالة الذهول التي أصابتنا. لقد فقدنا ناهد!

ثم نهضت الهانم بحركة آلية وغابت قليلًا في الدور العلوي، ثم عادت وهي تحمل شنطة الإسعافات الطبية. أخرجت إبرة وفتلة منها، ووضعت رأس ناهد على فخذها، ثم قامت بخياطة الجرح بعناية وهي تتحدث إليها:

- معلش، أنا عارفة إنك بتخافي من الإبر... استحملي شوية حبيبتي.

تطلعت إليها بعدم فهم، وهي تخيط الجرح، فوجدتها تنظر إليّ بعصبية قائلة:

- انتِ هتفضلي قاعدة تتفرجي عليا؟ قومي فزي أعملي رضعة لليلى، ناهد مش هتقدر ترضعها وهي تعبانة كدا!

تصلبت وأنا لا أفهم حديثها. أتراها الصدمة؟ المسكينة أفقدها الحزن عقلها!

صرخت في:

- اتحركي يا رضا! ليلى هتقطع النفس من العياط!

نهضت مذعورة وسمعتها تقول لي بينما أنا متجهة إلى المطبخ:

- تخلصي وترجعي تساعديني عشان نشيل ناهد للحمام ونساعدها

تاخد دش وتغير هدومها كدا.

التفت إليها في ذهول وقلت لها:

- إحنا... إحنا مش هندفنها يا ست ناريمان؟

نظرت إليّ بنفاد صبر وقالت باستهجان:

- انتِ مجنونة يا رضا؟ روحي اعملي الرضعة.. غوري من قدامي!

ذهبت للمطبخ وقمت بإعداد رضعة للرضيعة وأرضعتها وتأكدت من نومها في سكون، وعدت للهانم بتوجس. فوجدتها سحبت جسد ناهد لتجلسها على الأريكة في بهو القصر وهي تتحدث إليها بكلام غير مفهوم. فاقتربت منها ولمست كتفها برفق قائلة وأنا أبكي:

- هوني عليكِ يا ستي.

لم تجِبني ونهضت بتثاقل قائلة، وهي تحمل ناهد من تحت إبطيها وقالت:

- شيليها معايا يا رضا، خلينا نحميها ونيمها في سريرها!

حملت ناهد من ساقيها وصعدنا بها لغرفتها في الطابق العلوي. كانت خفيفة كالريشة. وضعناها في حوض الاستحمام وخلعنا ملابسها، لتظهر الكدمات الزرقاء في أنحاء جسدها. قلادة الفراشة الذهبية تدلي من رقبتها، تلك التي جاءت من فترة لتريها لي بفرح، فقد ابتاعها لها إسماعيل. انحدرت دموعي الساخنة وأنا أفتح الصنبور.

تدفقت المياه الدافئة على جسدها النحيف وتلونت باللون الأحمر

القاني. انتهينا من غسل جسدها وشعرها وحملناها للفراش. اختارت لها الهانم قميص نوم أخضر بكم طويل، وصففت لها شعرها لتداري الجرح الدامي في مؤخرة رأسها، وأراحت جسدها في الفراش واستلقيت بجوارها تحتضنها، وهي تقول لي:

- اقفلي النور يا رضا، وخلي بالك من ليلى انتِ عشان ناهد مش هتقدر.

لم أستطع أن أصمت فقلت لها بانفعال:

- يا ست هانم، حرام عليكِ نفسك!

فصرخت كالمجنونة وهي تقذفني بكتاب كان بجوارها على الكومود:

- اطلعي برا بقولك اطلعي برا!

فخرجت مسرعة وأغلقت الباب. قضيت الأمسية أحتضن الرضيعة ونبكي سويًا أهون عليها فراق أمها وتهون علي فراق ناهد ابنتي الروحية التي لم أنجبها.

في الصباح طرقت باب غرفة ناهد ودخلت إلى ناريمان هانم فوجدتها على نفس وضعها تحتضن جسد ناهد التي ازرقت شفتاها وشحب لونها بشكل مرعب.

اقتربت منهما فقالت ناريمان بصوت متحشرج:

- اخرجي يا رضا!

- يا ست هانم عشان خاطري، استهدي بالله وقومي ندفنها، إكرام

الميت دفنه!

- اخرجي يا رضا لو سمحتِ.

- لا مش هقدر أسيبك.

قالت باكية:

- عشان خاطر ناهد اخرجي وسيبيني لوحدي معاها.

فخرجت وعدت لها أكثر من مرة وكل مرة يتكرر المشهد وتصمم على خروجي لتجلس معها وحيدة.

وفي صباح اليوم التالي صعدت إليها في غرفة ناهد وما أن دخلت للغرفة التقط أنفي رائحة مزعجة للغاية لا أعلم كيف تحتملها الهانم وقلت لها بانفعال:

- يا حبيبتي مش هينفع كدا لازم تدفن.

نهضت الهانم بتثاقل وقالت:

- أنا مش هقدر أدفنها!

ليلى

الإسكندرية -2015..

تحسست الباب الموصد الذي يقود للطابق العلوي وتذكرت كل تحذيرات جدتي ألا أصعد لهذا الطابق وأنا طفلة وكيف أنني كنت أسألها بفضول:

- اشمعنى انتِ تتطلعي يا تيتة كل يوم؟

فكانت تجيبني لأنها تضع أشياء في المخزن لكن لا مكان للأطفال هناك. لا أذكر أنني رأيت جدتي تصعد هناك مؤخرًا، أما دادة رضا فلم تكن تصعد نهائيًا.

ماذا يوجد في الطابق الأخير للقصر؟

جذبت دبوس شعري وأخذت أعبس في قفل الباب الموصد قليلًا حتى سمعت الكليك كليك، استسلم الباب وكشف عن درج يقود للدور العلوي. الظلام يعم المكان، ورائحة كريهة تهاجم أنفي بضراوة!

أشعلت كشاف هاتفي الخلوي وأنا أرتجف. المكان مقبض بشكل كبير. أشعر بخوف شديد، ماذا لو ظهر لي هذا الكيان الأسود؟ لكنني فكرت أنه لم يؤذني في المرتين اللتين رأيته بهما، بل يبدو أنه دائمًا يحاول أن يقودني إلى شيء ما.

وصلت لمكان متسع. إن هذا المكان ليس مخزنًا كما أخبرتني جدتي، فهو فارغ تمامًا على عكس توقعاتي. فقط هناك كرسي عملاق في نهاية القاعة التي تماثل في مساحتها مساحة الدور

الثاني بأكمله.

الصوت يعود من جديد... يا إلهي! أوضح من أي وقت مضى!

- أنا قلبي دليلي... قالي هتحبي...

صوت حزين... رفيع... متقطع قادم من الكرسي الذي لا أرى سوى ظهره المرتفع، فقد وضعه أحدهم مواجهًا للحائط. اقتربت برعب من الكرسي، الصوت يتعالى...

- دايمًا يحكيلي... وبصدق قلبي..

بضع خطوات أخرى... أنا الآن أقف خلف الكرسي تمامًا، الرائحة لا تطاق. وضعت كفي لأغطي أنفي واستدرت لأواجه الكرسي.

- أنا قلبي دليلي..

هناك.. كان يجلس مصدر الصوت.. هيكل عظمي يرتدي قميص نوم أخضر اللون ذو أكمام طويلة وسلسلة الفراشة..

إسماعيل

الإسكندرية -2015..

لو كنت أعلم أنني عندما أخبر ناهد بما حدث أن مصيرها سوف يكون الموت مثلي، لما كنت أخبرتها. لقد شعرت وقتها بالعجز والغضب والحزن. الغضب أنني لا أستطيع الانتقام من التي أزهقت روحي.. العجز أنني مكبل الأيدي.. الحزن أنني لن أكون مع حبيبتي وابنتي مجددًا، لكنني لم أكن أعلم ما سوف تؤل إليه الأمور.

إن ترك ليلى وحيدة يتيمة الأب والأم لتربيها جدتها القاتلة ومساعدتها المخبولة لم يكن الخيار الأمثل لي بالتأكيد، لكنني كنت دومًا عاجزًا لا أستطيع أن أفعل أي شيء سوى أنني صرت أحاول أن أحيل حياة ناريمان ورضا جحيمًا طوال الوقت. نعم، لم أكن قادرًا سوى على تحريك بعض الأشياء الصغيرة من مكانها أو الظهور أحيانًا بكثير من الجهد على هيئة خيال أسود لهن. لكنهن اعتدن وجودي مع الوقت وتأقلمهن مع فكرة وجود شبح في البيت، فصارن يغلقن معظم الغرف التي لا يستخدمنها والتي تعلمن أنني دائم التواجد بها لتعلقي بها مثل غرفة البيانو.

الغريب أنني لم أرَ ناهد بعد وفاتها!

توقعت أنها ستتحول لشبح آخر يؤنث وحدتي لكن هذا لم يحدث للأسف. لا أعلم لماذا حدث لي هذا ولم يحدث لها؟ لكن عزائي الوحيد كان مراقبة ابنتنا الصغيرة ليلى من بعيد ولطالما حاولت أن أجعلها تشعر بي عن طريق التحدث إليها في نومها لكنها كانت تظن

أنها مجرد أحلام من وحي عقلها الباطن وغالبًا ما كانت تستيقظ لتنسى كل شيء عن الحلم.

لم أحاول الظهور لها وهي طفلة، خشيت أن أؤذيها نفسيًا، أن ترى خيالًا أسودًا قبيحًا هو شيئًا غير محبب للأطفال كما تعلمون. ثم بدأ سمعها يضعف رويدًا رويدًا فتوقفت عن الحديث إليها أيضًا. لكنني الآن بعدما بدأت في استخدام تلك السماعة، واستعادت سمعها، أحاول بكل قوتي أن أصل إليها، ربما أشفق عليها عندما تشعر بالذعر لدي رؤيتي لكنها الآن راشدة بما فيه الكفاية لتعرف حقيقة ما حدث لأبويها، ربما تواجه بعض الذعر لكنها سوف ترتوي بالحقيقة بعد سنين من ظمأ التشتت.

اسمع صوت ناهد العذب طوال الوقت في أنحاء القصر يشدو أغنية ليلى مراد المفضلة لكلينا. لا أعلم لما لكنني لا أستطيع الصعود للدور العلوي لزيارتها مهما حاولت، شيئًا ما يمنعني غير مفهوم. لكنني توقفت عن التساؤل.

إن عالم الأشباح معقد بشكل كبير ولا قواعد له!

حبيبتي وحيدة هناك في الطابق العلوي منذ وضعتها أمها هناك بعدما رفضت دفنها مثلما أرادت رضا. بعدما أشاعوا خبر وفاتها وهي تلد ليلى بين الأقارب والمعارف وأقاموا عزاءً مهيبًا، ثم أغلقوا القصر بعدها لمدة خمسة أعوام ورحلوا إلى القاهرة ليقيموا في بيت نازلي، والدة ناريمان. فلقد كانت رائحة تحلل الجسد لا تطاق بالرغم من وضعه في الطابق العلوي. وعندما عادوا بعد خمسة أعوام، كانت الأمور أكثر هدوءًا... لكن أكثر حزنًا.

ناريمان

الإسكندرية – 2015..

يبدو أن شبح إسماعيل لن يهدأ حتى تعرف ليلى حقيقة كل شيء! منذ استعادة سمعها وهو يحاول التواصل معها بطرق مختلفة. فتارةً يظهر لها شيئًا غامضًا في غرفة الموسيقى بعدما تسمع عزف أحدهم، وتارة يسمعها جزءًا من محادثات بيني وبين ناهد منذ ما يقرب من خمسة وثلاثين عامًا.

لقد صارت الفتاة شاحبة متوترة تتلفت وراءها بين الثانية والأخرى وهي تمشي في ردهة القصر. لا أعلم ماذا أفعل! لا أريد أن أفقدها هي الأخرى. هل لا بد لنا من الرحيل عن القصر؟

إنه القرار الصعب الذي لطالما راودني طوال الأعوام الماضية، لكنني لم أملك الجرأة الكافية لاتخاذه، فكيف أرحل وأترك ناهد هناك وحدها؟! يكفي الخمس سنوات الأولى من وفاتها التي اضطرت أن أتركها.

إنني أستأنس بوجودها، ولا أكف عن الحديث معها يوميًا، أتسلل فجرا للطابق العلوي وأجلس معها وأتحدث إليها كثيرًا حتى قبل موعد استيقاظ ليلى، ثم أتسلل عائدة لغرفتي مجددًا. لن أستطيع نقلها بعد كل هذه الأعوام، فقد أحبت المكان وصار جزءًا منها. لكنني قلقة على ليلى، المسكينة لا تفهم ما يحدث وتبدو على وشك الانهيار، وما زاد الطين بلة أن رضا الحمقاء أكدت شكوكها بوجود شيء ما غير طبيعي بالقصر. اضطررت أن أنكر حديث رضا وأتهمها

بالخرف لعل ليلى تتوقف عن البحث عن هذا الأمر، فأنا أعرف طبعها الفضولي الذي ورثته عن أبيها الوغد.

لن تتوقف عن البحث والتساؤل حتى تصل لإجابة مرضية. أتمنى ألا تصل إلى أي شيء، وأتمنى أن يتوقف إسماعيل عن ما يحاول فعله ويتقبل الأمر الواقع ويتفهم أنه هو من جلب كل هذا على رأسه! لقد تسبب بطمعه وفضوله غير الحميد في إنهاء حياته. والآن هو غاضب؟! أليس من الأولى أن أغضب أنا على ما اضطرني لفعله؟! لقد فقدت ابنتي بسببه. كنت أفكر في كل هذا وأنا أمر بالممر الجانبي الذي يصل الغرف ببعضها، حين رأيته!

الأحمق يقف هناك في ركن الممر الأكثر ظلامًا كالعادة. كدت أن أتجاهله كما اعتدنا أنا ورضا تجاهل أفعاله الصبيانية التي توقفت عن إثارة الرعب في نفوسنا منذ أعوام طويلة، لكنني شعرت بغضب عارم تجاهه فصحت به:

- ما كفاية بقى يا إسماعيل! أخرج من حياتنا يا أخي... فارقنا بقى... إذا كانت ناهد نفسها سامحتني!

تحرك ببطء شديد في البداية، ثم سرعان ما اتجه نحوي بسرعة خرافية ليعبر عبر جسدي ويسقطني أرضًا ثم يختفي.

ألتقطت أنفاسي بصعوبة وحاولت النهوض، لكنني شعرت بأن عظامي تئن ألمًا. رفعت رأسي نحو باب الطابق العلوي لأفاجأ بليلى، حفيدتي، تقف في ثبات تتأمل المشهد بصمت.

إنها قادمة من الطابق العلوي... الطابق الذي تسكنه ناهد!

رضا

الإسكندرية -2015...

لم تعد ساقاي تحتمل صعود الدرج مسرعة، لكنني سمعت ناريمان هانم تصرخ، فسقط قلبي بقدميّ وصعدت الدرج بالسرعة التي يسمح لي بها جسدي دون أن أسقط وتنكسر عنقي وأنا أصيح:

- يا ناريمان هاااانم ... فيه إيه؟؟؟ يا ليلى ستك مالها يا ليلى؟

لعل ليلى في غرفتها الآن وأقرب لها مني! الصوت قادم من الممر بين الغرف. هانت... بضع خطوات أخرى...

ها هي ناريمان هانم جالسة أرضًا، بينما أحدهم يقف عند باب الدور العلوي. نظري لم يعد عليّ ما يرام بالطبع، لكنها بالتأكيد ليلى. يا إلهي ما الذي حدث؟!

وصلت لناريمان هانم وحاولت مساعدتها على النهوض، بينما نحن الاثنان عيوننا لا تفارق ليلى. ليلى التي لم تكن ليلى التي نعرفها لقد تبدلت كثيرًا! متى أصبحت عينها زرقاء؟ هل ترتدي عدسات لاصقة؟

تطلعت إلينا بنظرة ثابتة قاسية، وشبح ابتسامة ساخرة يظهر على شفتيها! لا أذكر أن شعرها كان بهذه النعومة والكثافة من قبل. ثم القلادة!

قلادة الفراشة الذهبية حول عنقها! إنها ليست ليلى بالتأكيد، ربما الجسد جسد ليلى، لكن... اقتربت منا ببطء فصرنا نتراجع للخلف بظهرنا، تعثرت ناريمان هانم وسقطت مجددًا فأكملت تراجعها زحفًا،

بينما ليلى تتحدث بصوت لا يمت لها بصلة:

- مين قالك إني سامحت يا ناريمان هانم!

رباه إنها ناهد!!! هل حلت روحها داخل جسد ليلى؟

كدت أن أفقد وعيي، لكنني تماسكت وحاولت أن أساعد الهانم على النهوض، لكنها لم تساعدني، فيما يبدو أنها فقدت قواها من الصدمة، لكنها ما زالت تزحف بذعر للخلف مبتعدة عن ناهد.

- إزاي عملتي فيا كده؟! إزاي عارفة تقنعي نفسك طول السنين دي إني سامحتك؟

نهضت الهانم أخيرًا وهي ترتجف قائلة:

- أنا عمري ما كنت أحب أن الوضع يوصل لكده يا حبيبتي. أنا مكنش قصدي، أنا محبتش حد غيرك في حياتي.

صمتت ناهد واقتربت من ناريمان هانم بوجهها الذي يتغير كموج البحر بين الثانية والأخرى، فتارة هي ليلى وتارة تهتز الملامح لتظهر ناهد!

ابتسمت ناريمان هانم لدى رؤيتها لملامح ناهد ولمست وجهها بأناملها قائلة:

- إيه اللي يرضيكِ؟ هعملكِ اللي إنتِ عايزاه، بس نرجع كويسين مع بعض تاني زي زمان... فاكرة يا ناهد؟

ابتسمت ناهد برقة وقالت:

- إيه اللي يرضيني؟

هزت ناريمان هانم رأسها بالإيجاب، فقالت ناهد همسًا:

- إننا نصحح الوضع دا.

وقامت بدفع ناريمان هانم بقوة لتسقط من أعلى الدرج الذي كنا قد وصلنا إليه.

محمد متولي

فتح المحضر اليوم السبت الموافق 18-10-2015 الساعة الثانية وعشرون دقيقة صباحًا في فيلا العقيد صلاح فخري بمنطقة كفر عبده، حيث وصلنا لمقر الجريمة قبل افتتاح المحضر بقليل. أنا الرائد: محمد متولي رئيس مباحث استئناف الإسكندرية برفقة رجال المعمل الجنائي والمصور الجنائي محمد إحسان لتحقيق الأدلة الجنائية للواقعة، وقوة تأمين من الشرطة.

حيث قامت المتهمة رضا عثمان البهنساوي بالاعتراف بالجريمة عن طريق دفعها للمجني عليها لتسقط من فوق الدرج صريعة في الحال، وقد قامت المتهمة بتمثيل كيفية ارتكابها للجريمة معترفة أنها لم تكن تبيت نية مسبقة لقتل المجني عليها، حيث أنها تعمل لديها منذ أربعين عامًا، لكنها لم تحتمل الإهانات المتكررة من المجني عليها.

وقد كان في المنزل وقت وقوع الجريمة كل من ناريمان المرغني (المجني عليها) ورضا عثمان (المتهمة) وليلى إسماعيل عبدالحى (حفيدة المجني عليها) والتي كانت في حالة صدمة ولا تتحدث.

وأقفل المحضر عقب إثبات ما تقدم وقررنا الآتي:

أولًا: العودة لسراي النيابة بالإسكندرية لاستكمال التحقيقات.

ثانيًا: التحفظ على المتهمة.

ثالثًا: إرفاق محضر المعاينة التصويرية بالتحقيقات.

سكرتير التحقيق

أحمد موسى.

رئيس نيابة استئناف الإسكندرية

محمد متولي

عسكري مجهول

الإسكندرية -2015..

تجولنا أنا وحسني زميلي داخل القصر الذي تم الإبلاغ عن حدوث جريمة قتل به.

رباه! كم يساوي هذا القصر؟ الملايين؟

كان القصر مبهرًا كالقصور التي نراها في الأفلام القديمة والمسلسلات، عتيقًا للغاية لكنه ما زال محتفظًا بفخامته بالرغم من كونه مقبضًا بحوائطه المطلية باللون الأخضر القاتم، واللوحات الزيتية الضخمة والأثاث القديم الراقي.

جريمة قتل جديدة، دفعت فيها الخادمة العجوز صاحبة القصر من على الدرج لتتهشم رأسها. تقول المتهمة إن السيدة العجوز "غلاطة" ولا أحد يسلم من لسانها. فلم تحتمل المتهمة كل هذه الإهانات، بينما تقف حفيدة القتيلة في حالة من الذهول قائلة:

- أنا مش فاكرة حاجة... أنا كنت نايمة... معرفش إيه اللي حصل... إزاي رضا تعمل كده؟!

قصة غريبة للغاية خاصةً بعدما رأينا كيف تبدو الخادمة مرتبطة بحفيدة المجني عليها وكيف أنها تعمل لديهم منذ أربعين عامًا.

- صحيح العيش ميهونش إلا على ولاد الحرام!

قالها حسني ونحن نصعد للطابق العلوي، تحسسنا الأنتيكات الضخمة المبهرة بأنفاس متقطعة.

- دا إيه الأبهة دي كلها؟

- بقى كل القصر دا عايش فيه تلات نسوان بطولهم؟

- وإحنا سبع أفراد في أوضة واحدة من غير حمام.

- جاتنا نيلة في حظنا الهباب.

وقفنا في نهاية الممر أمام باب يقود لدرج علوي.

- ودا إيه دا كمان؟

- دا باين سلم بيطلع على دور فوق.

- هو لسه في دور تاني؟

- باينها كده... محمد باشا عارف إن في دور كمان؟

- مش عارف؟ تعالي نطلع نشوف فيه إيه فوق.

صعدنا ببطء بينما رائحة العطن تزكم أنوفنا، أضأت كشاف هاتفي... المكان خالي تمامًا... فقط في نهاية الغرفة هناك كرسي عالٍ بذراعين مبطنين ويبدو أن أحدهم يجلس هناك!

- مين؟ مين هناك؟

لم يأتِ الرد، اقتربنا أكثر بتوجس وفجأة سقط ذراع الشخص الذي يجلس من فوق ذراع الكرسي وقد كان ذراعًا عظميًا!

تجمع الضباط والعساكر على صوت صراخنا.

جثة أخرى! وهذه المرة تبدو عليها القدم، حيث رجح الطبيب الشرعي أنها غالبًا ما تعود لعمانينات القرن الماضي.

يبدو أنها ستكون قضية الموسم والأمر لم يقتصر على جهة واحدة!

ليلى

الإسكندرية-2015..

حتى هذه اللحظة... لازلت لا أعلم ما حدث يومها!

إن آخر ما أذكره أنني كنت أستكشف الطابق العلوي المغلق فوجدت هيكلًا عظميًا هناك، أيقنت أنه ما تبقى من أمي من القلادة التي ترتديها. لمست قلادتها فشعرت بخدر في جسدي، ولم تعد ساقي تحملني فسقطت أرضًا.

شعرت ببرودة تغمر جسدي الذي أصيب بالشلل.. رباه! لا أستطيع أن أتحرك وأنا أرى الهيكل العظمي القبيح ينهض من الكرسي وقد بدأ يتحول رويدًا رويدًا لأمي!

الهيئة الجميلة التي كانت أمي عليها في الصور! واقتربت مني مبتسمة بعذوبة حتى زال كل الرعب من داخلي وقبلت رأسي وأنا ما زلت نائمة أرضًا ثم وضعت يديها الرقيقتين على جبهتي فتطلعت لسقف المكان ورأيته وكأنه قد تحول لشاشة عرض ضخمة.

رأيت عليها جدتي وهي شابة...

رأيتها تهرب من جدي وهو يسقط من فراشه بينما تتحدث هي عن سم البيلادونا الذي يتغلغل بجسده.

رأيتها وهي تبيع السم لنساء كثيرات من مختلف الطبقات وتشرح لهم طريقة استخدامه. رأيتها وهي تدفن أبي حيًا!

ورأيتها وهي تتشاجر مع أمي حتى سقطت من على الدرج! دمعت

عيني، أنا أتطلع لأمي الجميلة لكنها مسحت دموعي بيدها قائلة بصوتها الرقيق:

- متخفيش... كل شيء مقدر ومكتوب يا ليلى، ومكتوب لك إنك تيجي هنا النهاردا عشان تساعديني أنا وباباكِ.

- هو فين بابا؟

ابتسمت وقالت:

- باباكِ اللي وصلك لحد هنا.

- أساعدكم؟ إزاي؟

ربطت على رأسي والابتسامة لا تفارق شفتاها ثم نهضت وخطت فوق جسدي ليلتحم جسدها الشفاف غير المادي بجسدي، شهقت شهقة طويلة وأنا أشعر برجفة مرعبة. ثم لا شيء...

أظلمت الدنيا! لا أذكر أي شيء على الإطلاق! وحين استيقظت وجدت نفسي أجلس أرضًا أسفل الدرج بجوار جثة جدتي ناريمان تسبح بدمائها ورضا تبكي بحرقة قائلة وهي تحتضنني:

- سامحيني يا بنتي، سامحيني، غصب عني خبيت عليكِ، سامحيني!

لا أفهم ما حدث.. رباه! جدتي!!

جلست أرضًا بجوارها أهز جسدها بعنف وأتحسس عنقها باحثةً عن نبض يعيد لي الحياة..

لا شيء.. لقد لحقت روحها بأمي وأبي..

مددت يدي أتحسس عنقي.. القلادة!

قلادة الفراشة.. إنها هناك حول عنقي، بينما دادة رضا ما زالت تتحدث بصوتٍ متقطع:

- بس أنا مش هقولهم إن انتِ اللي عملتيها... انتِ هتعيشي يا ناهد!

قلت بصوت متقطع خنقته الدموع:

- أنا... أنا ليلى... أنا مش ناهد.

لكنها كانت قد خرجت تهرول في الشارع صارخة لتخبر الجميع أنها قتلت ناريمان هانم، تجمع المارة واقتحموا القصر ليجدوا جسد جدتي وتطوع أحدهم بإبلاغ الشرطة.

لا أعلم لما قد تقتل رضا جدتي، إن علاقة الإثنين أقوى من أي شبهات أو شكوك أو كراهية. لم أفهم ولم تترك هي لي فرصة للفهم! لماذا كانت تناديني بناهد؟ وكيف أرادت أمي أن أساعدها؟

إن الأمر غير منطقي، لكنني لا أذكر أي شيء للأسف ولا شاهد هناك على الواقعة سوى رضا نفسها التي اعترفت على نفسها أمام رجال النيابة. وحين فتشت الشرطة المكان اكتشفوا وجود رفات أمي في الطابق العلوي بينما اعترفت رضا بوجود جثتين مدفونتين في القبو!

أحدهم لفرج زوجها والأخرى هي جثة أبي الذي تعاونت على دفنه حيًا مع جدتي!

أبي الذي يظهر لي في صورة ذلك الشبح الغامض. اعترفت رضا

أيضًا أنها اشتركت مع جدتي لبيع سم مستخلص من جذور نبات البيلادونا للسيدات اللاتي يتعرضن للعنف الأسري ليتخلصن من أزواجهن بطريقة هادئة بعيدة عن الشبهات.

استمرت التحقيقات لما يقرب من الأربعة أشهر، وبذكر أسماء الضحايا، وجد رجال النيابة أن الجرائم طالت ما يقرب من المئة رجل ما بين حقبة الستينات حتى بداية حقبة الثمانينات. لكن الأمر كان أعقد مما ينبغي، فمعظم السيدات اللاتي قتلن أزواجهن بسم البيلادونا كانوا قد توفاهن الله أو تجاوز عمرهن الثمانين الآن، كما ظلت بعض الأسماء مجهولة وتعذر الوصول لأصحابها.

ألقي القبض على السيدات اللاتي استطاعوا الوصول إليهن واعترفن بجرائمهن بعد مواجهتهن برضا واعترفاتها. أما أنا فقد انتقلت للعيش في شقة صغيرة بعد إغلاق القصر حتى تنتهي التحقيقات.

وبعد إغلاق القضية، سمحوا لي بالعودة للقصر أو بيعه إذا أردت. لكنني عدت إليه على عكس توقعات الجميع، فجميعهم أجزموا أنني مختلة عقليًا، كيف لأحدهن أن تعود لتسكن قصرًا كان شاهدًا على وفاة جميع أفراد أسرتها!

لم أستطع أن أخبرهم أيضًا أن شبح أبي كان ومازال يسكن المكان حتى لا يموتون هلعًا! لكنني لم أعد أخشى رؤيته في الواقع، بل إنني - صدق أو لا تصدق – صرت أشعر بالحميمية لوجوده في القصر.

أحب اللحظات التي أراه يمر بجواري أو حين أجده يقف في ركن الغرفة المظلمة. أحيانًا كثيرة أنتظر أن يسقط مزهرية ما أو كتاب

بفارغ الصبر وكأنه يخبرني أنه بالجوار.

أتأمل سماعتي التي أضعها على الكومود بإمتنان وأضعها بأذني قبل خروجي للحديقة. إنه معاد قهوتي اليومية في الحديقة، أجلس على الأريكة المصنوعة من البامبو أمام أشجار البيلادونا المهملة، أتطلع إليها بمقت وأنتظر ذبولها تمامًا بفارغ الصبر.

- ليلى... ليلى!

انتفضت ونهضت مذعورة حتى أسقطت الأريكة أرضًا وتلفتت من حولي، من أين يأتي هذا الصوت الأنثوي؟ أنا لست واهمة، هناك صوت كان ينادي على اسمي!

خلعت السماعة ووضعتها بأذني مرة أخرى وانتظرت لبرهة:

- ليلى ... ليلى!

الصوت يأتي من هذا الاتجاه.. من وسط أشجار البيلادونا!

اقتربت ببطء من الأشجار، قلت بتوجس:

- انتِ مين؟؟

ضحكة خنفاء مرعبة ثم قالت:

- أنا ميرفت.

جلست أرضًا من أقرب مكان لمصدر الصوت، تحسست التربة وتناولت الرفش المجاور وبدأت أحفر الأرض. لم تمضِ سوى لحظات قبل أن أصطدم بشيء صلب... يا إلهي!

ما هذا؟

عظام كف دقيق!!!

جلست أرضًا أتأمل الكف العظمي الذي يتدلى منه خاتم ذهبي ذو فص أحمر اللون!

الصوت يتعالى من جديد:

- بيتهيألي محتاجة تسمعي قصتي؟

يبدو أن السماعة لن تكف عن التقاط استغاثات الأشباح....